الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة قاصدي مرباح – ورقلة –

بلاغة المتشابهات اللّفظيّة في القصّة القرآنيّة

- قصّة إبليس أنموذجا -

أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها
تخصّص: بلاغـــة وأسلـوبـــيّـة

الطالب: محمد شيباني
بإشراف: أ. د: أحمد حاجي

السنة الجامعية:
1439/ 1440هـ – 2018/ 2019م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على النبيّ المصطفى وبعد:

من خلال ملازمتي للقرآن الحكيم ملازمة وجدانية بلاغية خاصة في فترة إعدادي لرسالة الماجستير لفت نظري التشابه والاختلاف الموجود في الآيات التي تناولتها بالدراسة: في كلماتها، وحروفها، وأساليبها؛ مما يزيدها ثراء في البيان واللغة والمعاني؛ فرغّبني ذلك أن أتناول المتشابه اللفظ بالدراسة في مرحلة الدكتوراه.

وفي أثناء قراءتي لكتاب الله تعالى أمرّ على قصّة إبليس التي هي من بين القصص التي تحرّك النفس وتثير المشاعر والوجدان؛ كيف لا؟ وهي القصّة التي حوّلت مسار حياة آدم عليه السلام أصل الجنس البشري وما تميزت به من الموضوعات المتشعّبة: من رفضه السجود لآدم، واستكباره، ومكره، وغوايته لآدم، وتحدّيه لأبنائه...، فأجدها تتكرّر وتتشابه؛ وفي كلّ سورة تأخذ جانبا خاصّا بما يتّفق ومعاني السورة، وسِمتها التعبيريّة.

وبعد قراءة واعيّة متأنّيّة للمصادر التي لها علاقة بالموضوع؛ وجدت عناية الدارسين به قليلة، خاصّة الجانب التطبيقي منه، بل في جلّها دراسات نظريّة تضمّنت إشارات غير وافيّة، أو عبارات مجملة تحتاج إلى تفصيل وبيان، ولم أر – في حدود اطّلاعي – من أفرده بالبحث، أو بدراسة علميّة وافيّة تفي بالغرض المقصود منها؛ وبقاء الموضوع دون بحث يترك كثيرا من الأسئلة الهامّة معلّقة، مع الحاجة العلميّة إلى جواب عن تلك الأسئلة.

ولعلّ من الإشكاليات المطروحة على بساط البحث ما يأتي:

ما المقصود بالمتشابهات اللفظية في القرآن الكريم وكيف تجلّت بلاغتها في قصة إبليس؟ ما هي أهمّ أغراضها البلاغيّة؟ وهل المتشابه من

قبيل التكرار؟ أم هو تنويع في الدلالة؟ ما هي الصور والسمات التعبيريّة التي يرد فيها المتشابه في القصة القرآنية؟ ما هي درجة الإقناع التي يحقّقها المتشابه في القرآن الكريم عامة، وفي قصصه خاصة؟ وإلى أيّ مدى يحقّق المتشابه في القصة القرآنية الوظيفة التواصليّة المتوخّاة من النصّ القرآنيّ؟

هي أسئلة راودتني، أحاول الإجابة عنها ضمن موضوع أسميته: "بلاغة المتشابهات اللفظية في القصّة القرآنية -قصّة إبليس أُنموذجاً-**".**

هذا وقد استقرّ رأيي على اختيار هذا الموضوع لأسباب هي:

***1*. أسباب موضوعية:**

- **قلّة الدراسات العلمية التي تناولت المتشابه اللفظ تناولا أسلوبيّا حديثا، أو تناولا بلاغيّا مستفيضا؛ مع المزاوجة بالدراسات التطبيقيّة على آي الذكر الحكيم.**
- **تفصيل المجمل وجمع المتفرّق من كلام العلماء واللغويّين السابقين في الموضوع.**

***2*. أسباب ذاتية:**

- **الرغبة الصادقة في خدمة النصّ القرآنيّ بتجليّة جانب من جوانبه العظيمة، والكشف عن حقيقة إعجازه، وسحر بيانه.**
- **طبيعة التخصّص المعرفيّ الذي قادني إلى العناية بمثل هذا الموضوع.**

وتكمن أهمّيّة الموضوع في كشف اللثام عن حقيقة الإعجاز القرآنيّ، من خلال المتشابه اللفظ، واستجلاء جماليّات العبارة القرآنيّة، وتفرّد هذا

الأسلوب، وتميّزه عن بقيّة الأساليب البلاغيّة الأخرى من خلال:

_ أنّه يدرس بلاغة القرآن الكريم وإعجازه من زاوية مهمّة لم تنل حقّها من الدراسة والبحث، وهي المتشابهات القرآنيّة التي تعني وجود اختلافات يسيرة في بناء الأسلوب، والكشف عن هذه الاختلافات في ضوء فهم السياق يدلّ دلالة ظاهرة على ملاحظة البناء اللغويّ القرآنيّ لأحوال المقامات، وهذا هو جوهر البلاغة والنظم والإعجاز.

_ هذا البحث يمثّل البلاغة التحليليّة في بعض صورها، حيث تتّسع النظرة لتشمل النصّ كاملا؛ أي إنّه ينتقل بنا من بلاغة الجملة إلى بلاغة النصّ، فيبرز خصائص دلالاته، ومحاسن صياغته، مع بيان ما فيه من الذوق الرفيع والحسّ المرهف.

_ يتميّز هذا الموضوع بالربط الكامل بين الدراسة البلاغيّة، والدراسة النحويّة، وحاجة كلّ منهما للآخر؛ لاسيما دراسة التراكيب وخصائصها، ومسألة النظم القرآنيّ.

على أنّ الدراسات التي تناولت موضوع المتشابه اللفظ في القرآن الكريم قليلة؛ وعلى قلّتها فإنّ ما يلاحظ عليها أنّها تنحاز إلى الإجمال دون التفصيل، وإلى الدراسة النظريّة، دون الدراسة التطبيقيّة، التي تكفي مؤونة الكشف عن خصوصيّات المتشابه اللفظ في القرآن الكريم.

ومن الكتب التراثية في هذا الموضوع: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، والبرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني محمد بن حمزة (505 هـ)، وملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي (708 هـ)، وكشف المعاني في المتشابه من المثاني لبدر الدين بن جماعة (733 هـ)، وفتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري (925 هـ)؛ وهي

كتب تراثية لم تزد على أن جمعت آيات المتشابه في القرآن الكريم دون دراسة تحليليّة لأنماط المتشابه اللفظ في القرآن الكريم.

ولا يفوتني أن أنبّه إلى أنّي اطّلعت على أطروحة أكاديمية بقسم الدراسات العليا للغة العربية بجامعة أمّ القرى تحت عنوان: المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية للأستاذ الباحث صالح عبد الله محمد الشثري، وقد بذل هذا الأخير جهدا لا يستهان به في جمعه للمادّة العلميّة وصياغتها وتكييفها حسب ما يلائم موضوع بحثه؛ إلا أني اكتشفت بعد قراءتي لهذا البحث أنه جمع لما ورد في الكتب المذكورة سابقا دون تمحيص ولا تدقيق، ولا مناقشة للآراء المنقولة أو التعليق عليها.

هذا! ولا أنكر أنّي استفدت من هذه الأطروحة بتقريب البعيد، وحذف الفضول، ولملمة الشتات، واستبانة الصراط، ذلك الذي زاد من تحفيزي على إثراء الموضوع، وبسط معالمه؛ بشرحه وتفصيل مجمله، وبيان مبهمه، وإيضاح معضله، وفكّ مشكله، بغية إصابة المعنى، والقصد إلى الحجّة.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن أتناوله وفق منهجين:

1_ المنهج الاستقرائي: فألزمت نفسي بدراسة المتشابه اللفظيّ في القصص القرآني، وذلك برصد الآيات المتشابهة ودراستها ضمن موضوعها الذي تنتمي إليه، ثمّ أردف ذلك بتتبّع ما في القرآن الكريم من آيات المتشابه اللفظي الواردة في قصّة إبليس، ورصد ما قاله العلماء والمفسرون اللغويّون في معناها؛ وهذا في الشطر الثاني من الدراسة (التطبيقية).

2_ المنهج الوصفي التحليلي: الذي يعتمد على وصف المظاهر التركيبيّة للمتشابه اللفظيّ، وتحليل النصوص وتركيبها؛ بالبحث عن القواعد العامّة التي جرى عليها المتشابه اللفظيّ في القصص القرآني.

ويلاحظ من خلال المنهج المتوسّل به في مقاربة هذا الموضوع، أنّه منهج مزدوج نظرا لطبيعة الإشكاليّة المطروحة.

ثمّ إنّني لمّا رأيت أنّ هناك آياتٍ متشابهة في موضع ما، تحمل نفس المعنى مع آيات أخرى متشابهة في موضع آخر من كتاب الله، اقتصرت في بحثي على إيراد واحدة منها، مع الإشارة إلى تطابقها في المعنى مع مثيلاتها، وهذا إيثارا للاختصار المفيد على الإسهاب المخلّ والمملّ.

وأهتبل الفرصة لأنبّه إلى أنّي عزوتُ إلى بعض المصادر والمراجع، وصدّرتُ هامشها بلفظة: «ينظر»؛ ذلك أنّ مَنْ أنقُلُ عنهم من علماء المتشابه القرآني، وبالأخصّ الذين ذكرتُ كتبهم في فقرات سابقة؛ لغتهم وأسلوبهم في الكتابة أقرب إلى لغة المنطق والفلسفة، وأسلوب المناطقة والفلاسفة، منها إلى لغة الأدب وأسلوب الأدباء؛ فلجأت إلى قراءة آرائهم في الآيات، وتعليقاتهم عليها مرّات عديدة، حتّى أفهمَها، فإذا تمكّنتُ من ذلك عمدتُ إلى صياغة معناها بأسلوبي الخاصّ دون الخروج عن مضمون النصّ الأصليّ، وقد أحتفظ ببعض الألفاظ والجمل الواردة في النصّ الأصليّ، وربّما تعدّى ذلك إلى السطر والسطرين، وليس هذا من إبداعاتي وصنع أفكاري؛ بل متّبع،آخذ عمّن قبلي.

فإذا كانت الحال هذه قلت في الهامش: «ينظر»، ومعناها الذي ذكرت.

وقد أسفرت هذه الدراسة من بدايتها إلى منتهاها عن مقدّمة ومدخل وفصلين وخاتمة.

بيّنت في المقدّمة إشكالية البحث، وأهمّيّة الموضوع، وأسباب اختياره، والمنهج المتّبع في إعداد البحث، وخطته.

أمّا المدخل فقد تناولت فيه التعريف اللغوي والاصطلاحي للمتشابه اللفظ في القرآن الكريم وبيان أهمّيّته وفوائده والحكمة منه، والإشارة إلى بعض الأنماط التي يرد عليها فيه.

وأمّا الفصل الأول فقد خصّصته للقسم النظري، تناولت فيه بلاغة المتشابهات اللفظية في القصّة القرآنية وحاولت دراسة الآيات المتشابهة المخصّصة لسرد أحداث القصّة القرآنية الواحدة ووقائعها، وفق ترتيب المصحف الشريف، محاولا إبراز مظاهرها الإعجازية وأسرارها البلاغية، بما أمدّني الله جلّ وعلا من فيض رحماته، ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

وأمّا الفصل الثاني فهو عبارة عن دراسة تطبيقيّة للآيات التي تضمّنت قصّة إبليس وما كان منه من العناد والجحود والاستكبار، وقد ضمّنتها أربعة مباحث:

الأوّل: بلاغة القصّة ودورها في البيان التذكيري.

الثاني: الملمح التطبيقي للآيات المتشابهة في سرد أحداث القصّة، وبيان علائقها البِنَوِيّة.

الثالث: أهمّيّة المتشابه في التصوير الفنّي والتناسب اللفظي والمعنوي في القرآن الكريم.

الرابع: البنية السرديّة للقصّة القرآنية، وكانت الدراسة على قصّة إبليس خصوصا.

أمّا الخاتمة، فذكرتُ فيها ملخّصا لأهمّ نقاط البحث، ونتائج البحث، وبعض التوصيّات، ثمّ أردفت ذلك بالفهارس العامّة.

على أنّني لست مدّعيا أنّي بلغت غايتي في هذه الدراسة؛ ذلك أنّ بحثا

كهذا لا يمكن الإحاطة بالمادّة العلميّة التي تحدّده، أو بالقوانين اللُّغَويّة والبلاغيّة التي تضبطه؛ وهذا لأنّه مترامِي الأطراف، ومتعدّدُ الجوانب، ولن يظفر بدراسة علميّة معمّقة مستفيضة، إلاّ بطَرْقِ كلّ هذه الجوانب، من بلاغيّة ونحويّة وإعجازيّة ونفسيّة وتفسيريّة وأسلوبيّة، ولا يمكن بسط هذا كلّه في أطروحة علميّة مقيَّدة بمواصفات أكاديميّة محدَّدة، ذلك أنّ التقيّد بهذه المواصفات يترك كثيرا من الأسئلة العالقة، والإشكالات المطروحة على بساط البحث، دون إجابات وافيّة، وحلول كافيّة، وذلك لعدم الغوص في أعماق البحث، والاكتفاء بالحد الأدنى من الدراسة ، تجنُّبا للإطالة والتوسّع، هذا من جهة. ولأنّ موضوعا كهذا، يتّصل اتّصالا مباشرا بخلجات النفس ومشاعرها وأحاسيسها،فالقرآن يخاطب النفس كفاحا ليس بينه وبينها ترجمان؛ لذلك يستعصي على الباحثين إيجاد نظريّات علميّة، أو قواعد كلّيّة، تضبط معالمه، وتكشف مرامِيَه، وبالتالي يبقى تحت رحمة الأحكام المضطربة الصادرة عن قناعات النفوس البشريّة، على اختلاف مداركها؛ ومن ثَمَّ لا يمكن الارتياح إلى رأي مصدره الذوق، والملَكة ليس إلاّ، هذا من جهة أخرى.

وأرجو أن أكون قد وُفِّقتُ،في إبداء آراء سديدة، وإيجاد إجابات صحيحة لكلّ ما يكتنف البحث من غموض، ونعوذ بالله من زلل القلم، وخطل الرأي، فمنه التوفيق، وعليه الاعتماد.

ولا يفوتني أن أسديَ جزيل الشكر إلى كلّ من أعانني على إنجاز هذا البحث، وأخصّ بالذكر الأستاذ المشرف الدكتور أحمد حاجي الذي لم يبخل عليّ بنصائحه، وإرشاداته خلال فترة البحث، رغم علاقاته الواسعة ومشاغله الكثيرة، أسأل الله أن يمده بالصحة والعافية ويبارك في عمُره.

وأشكر لكلّ أساتذتي الذين تعلّمت على أيديهم، فجزاهم الله عني خيرا.

والشكر موصول للّجنة المناقِشة التي تجشّمَت عناء قراءة الأطروحة، وتقويمها، وتنقيحها، وتصويب أخطائها، وكلّي آذان صاغية لسماع نصائحهم وإرشاداتهم.

وختاما: أسأل الله العليّ القدير أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يجعله ذخرا لي في الدارين، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم.

كتبه: محمد شيباني

الجمعة 03 جمادى الآخرة 1440 هـ

الموافق لـ: 08 فبراير 2019 م.

مدخل

قراءة في مصطلح المتشابه اللفظ وأبعاده اللغويّة.

المتشابه لغةً:

المُتشابه في اللغةِ اسم فاعل مشتقّ من التشابه؛ يُطْلَقُ في لغة العرب، ويُراد به ما تَماثل من الأشياء وأشبه بعضُه بعضا، وعلى ما يَلْتَبِسُ من الأمور ويستشكل[1]، يقول المناويّ رحمه الله: «المتشابه: المشكل الذي يحتاج فيه إلى فكر وتأمّل» [2].

أمّا المتشابه في القرآن الكريم؛ فحين يطلق فإنّه يراد به قسمان:

القسم الأوّل: المتشابه في مقابل المحكم؛ وهو المراد بقوله تعالى: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ» [آل عمران: ٧]؛ وقد وقع حول هذا القسم خلاف كبير بين العلماء في تحديد ماهيته، وتباينت أقوالهم وآراؤهم، وهذا القسم ليس موضوع بحثي في هذه الأطروحة، وعلى الراغب في الاِطِّلَاع – عن كثب – على مذاهب العلماء حول هذا القسم أن يرجع إليه في مظانِّه[3].

---

(1) مختار الصحاح للإمام الرازي، دار الجيل، بيروت، لبنان،(د، ر، ت، ط)، ص: 328. لسان العرب لابن منظور، دار الجيل، بيروت، لبنان، (د، ر، ط) 1408/ 1988، (3/266). معجم مقاييس اللغة لابن فارس، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1411/ 1991، (3/ 243). القاموس المحيط للفيروز آبادي، مؤسسه الرسالة، بيروت، لبنان، ط6، 1419/ 1998، ص: 1247. أساس البلاغة للزمخشري، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1419/ 1998، (1/ 493). المصباح المنير للفيومي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط2، 1418/ 1998، ص: 159.

(2) التوقيف على مهمّات التعاريف، لمحمد عبد الرؤوف المناوي، تح: محمد رضوان الداية، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1410/ 1990، ص: 633.

(3) ينظر: البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، لبنان، (د، ر، ط)، 1408/ 1988، (1/ 113). الإتقان في علوم=

القسم الثاني: المتشابه اللفظ الذي يحصل في بعض آيات القرآن الكريم وسوره، وهو موضوع البحث في هذه الأطروحة أو الرّسالة.

تعريف المتشابه اللفظ لغة:

جاء في كتاب الانتصار للقرآن للقاضي أبي بكر الباقلّاني (ت403هـ) ما نصّه: «وأصل المتشابه في الكلام أن يشبه اللفظ اللفظ في صيغته وصورته، وإن اختلف معناهما؛ ومنه قوله تعالى: «تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ» [البقرة: ١١٨]، أي: أشبه بعضها بعضا في الكفر والإصرار والعتوّ؛ ومنه قوله تعالى في ثمر الجنّة: «وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا» [البقرة: ٢٥]؛ يعني في الصورة واللون والهيئة، وأن اختلفت الروائح والطعوم...»[1]

=القرآن لجلال الدين السيوطي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، (د، ر، ط)، 1418/ 1998، (3/ 3). معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1408/ 1988، (1/ 103). أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات، لمرعي بن يوسف الكرمي المقدسي، تح: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1406/ 1986، ص: 49– 198. إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، لصالح بن فوزان الفوزان، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط3، 1423/ 2002، (2/ 144– 146). إيثار الحق على الخلق لابن الوزير محمد بن إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1407/ 1987، ص: 12، وما بعدها، 86، وما بعدها، 90، وما بعدها، 98، وما بعدها. الأسماء والصفات لأبي بكر البيهقي، تح: عبد الله الحاشدي، مكتبة السوادي، جدة، المملكة العربية السعودية، ط1، (د، ت، ط)، (2/ 379). الإحكام في أصول الأحكام للإمام ابن حزم الأندلسي، دار الحديث، القاهرة، مصر، ط1، 1404/ 1984، (4/ 519– 523).

(1) الانتصار للقرآن لأبي بكر الباقلاني، تح: محمد عصام القضاة، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1422/ 2001، (2/ 781). وينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي، (2/69).

تعريف المتشابه اللفظ اصطلاحا:

يقصد بالمتشابه اللفظ في الاصطلاح ما جاء في القرآن الكريم مكرّرا في غير ما موضع، بألفاظ متشابهة، وأساليب متنوّعة؛ على أن تتّفق في المعنى، وتتّحد في الغاية؛ وقد بيّنه الإمام الزركشي بقوله: «هو إيراد القصّة الواحدة في صور شتّى، وفواصل مختلفة؛ ويكثر في إيراد القصص والأنباء»[1] ويزيد السيوطي بيانا لأنماط المتشابه؛ بعد أن أورد كلام الزركشي؛ فيقول: «.. بأن يأتي في موضع واحد مقدّما، وفي موضع آخر مؤخّرًا... وفي موضع بزيادة، وفي موضع بدونها،... وفي موضع معرّفًا، وفي آخر منكّرًا، أو مفردا وفي آخر جمعا، أو بحرف وفي آخر بحرف آخر، أو مدغما، أو مفكّكا»[2].

ولفظ القصّة في كلام هؤلاء الأعلام لا يعني المفهوم العامّ للقصّة القرآنيّة، كقصّة نوح وموسى ويوسف... إلخ؛ إنّما المراد بالقصّة عندهم الأمر والموضوع مطلقا؛ سواء ورد أثناء قصّة قرآنيّة أو غيرها؛ بدليل قول الزركشي نفسه: «ويكثر في إيراد القصص»؛ فصرّح أنّه يكثر فيه– وهو موضوع بحثنا–؛ دون حصر المتشابه فيه.

ومن اللائق بهذا المقام أن نلمّ الشَّعْثَ ونجمع المتفرّق من كلام الأعلام، ونَفصِلَ في الخطاب بقولنا: إنّ المتشابه اللفظي في القرآن الكريم أن تجيء الآيات القرآنية متكرّرة في القصّة الواحدة من قصص القرآن، أو

---

(2) البرهان في علوم القرآن للزركشي، (112/1). الكليات لأبي البقاء، إعداد: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1419/ 1998، ص: 845.

(2) معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي، (66/1). الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، (3/ 339، 340).

موضوعاته؛ في ألفاظ متشابهة، وصور متعدّدة، وفواصل شتّى، وأساليب متنوّعة، تقديما وتأخيرا، وزيادة ونقصا، وذكرا وحذفا، وتعريفا وتنكيرا، وإفرادا وجمعا، وإيجازا وإطنابا، وإبدال حرف بحرف آخر، أو كلمة بكلمة أخرى، ونحو ذلك، مع إتحاد المعنى لغرض بلاغي، أو لمعنًى دقيقٍ يراد تقريره، لا يدركه إلّا من صفت قريحتُه، وملأ بالعلم صدرَه، وأتعب في التنقيب عن دقائق المعاني فِكرَه، وأخلص لصاحب المدد سبحانه نِيَّتَه وقلبَه[1].

حكمة هذا العلم وأهمّيّته وفوائده[2]:

إنّ الغَايَةَ من المتشابه اللفظ في الذِّكر الحكيم، التصرُّفُ في الكلام والإتيانُ به على ضروب لِيُعْلِمَهم – أي العرب – عجزَهم عن جميع طُرُقِ ذلك مبتدأ به ومتكررّا. ولأنّ أكثر أحكامه تثبت من وجهين؛ فلهذا جاء باعتبارين[3].

على أنَّ هذا التصرّفَ خالٍ من الإسراف والتَّقتير، سليمٌ من الحشو والزيادة عن قدر الحاجة، أو الحذف والقصر عن استيفاء البيان والمحجَّة؛ بل إنَّ كلام العليم الخبير: «جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نُظُومِ التأليف،

---

(1) للتوسّع أكثر، يرجى الرجوع إلى مقدّمات تحقيق الكتب الآتية: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، تح: محمد مصطفى آيدين، دار الفتح للدراسات والنشر، عمان، الأردن، ط1، 1431/ 2010، (1/ 59). ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، تح: سعد الفلّاح، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1428/ 2007، (1/ 103).كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، تح: عبد الجواد خلف، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ط1، 1410/ 1990، ص: 45.

(2) لمزيد من البيان ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي، (1/ 112).

(3) ينظر مقدمة تحقيق: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (1/ 64).

مُضَمِّنًا أصحّ المعاني»[1].. «تَسْتَبْشِر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظّها منه، عادت مرتاعة، قد عراها من الوجيب والقلق، وتغشّاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له، ويحول بين النفس وبين مضمراتها، وعقائدها الراسخة فيها»[2].. قال الله تعالى: «لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» [الحشر: ٢١]، وقال سبحانه: «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ» [الزمر: ٢٣]، وقال جلّ شأنه: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» [الأنفال: ٢]، وقال عزّ ثناؤه: «وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ» [المائدة: ٨٣].

إنّه الكتاب «الذي لا يملّه قارئه، ولا يمجّه سامعه؛ بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبّة، ولا يزال غَضًّا طريا... يستلذُّ

---

(1) بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان الخطّابي، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، مصر، (د، ر، ت، ط)، ص: 24.

(2) بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان الخطّابي، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص: 64. وينظر: فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبويّة حتّى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق لنعيم الحمصي، تقديم: محمد بهجة البيطار، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1400/ 1980، ص: 64.

به في الخلوات، ويؤنس بتلاوته في الأزمات.. لا يخلق على كثرة الردّ، ولا تنقضي عبره، ولا تفنى عجائبه، وهو الفصل ليس بالهزل، لا يشبع منه العلماء، ولا تَزِيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة»[1]، «كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» [هود: ١]، جلّ جلاله. وتقدّست أسماؤه.

ومن الغاية تَتَّضِحُ جليًّا أهمّية هذا العلم، وفائدته في تأصيل الدراسات القرآنيّة والعلميّة؛ لكون المتشابه اللفظي علما قائما بذاته من فروع علوم القرآن، ومن أقوى الأدلّة على أنّ القرآن الكريم وحي من عند الله تعالى، لا عَمَلَ للبشر فيه، بأيِّ وجه من الوجوه.

ثُمّ إنّ لهذا العلم – أعني المتشابه اللفظ– أهمّية بارزة من حيث نشأتُه؛ إذ أُنشئ حفاظا على القرآن الكريم– كما أُنْزِل من عند الله تعالى– من وقوع اللحن في كلماته، والخطإ في تلاوته؛ وتيسيرًا لحفظه على المسلمين؛ زيادة على كونه وجها من وجوه إعجازه، وسرّاً من أَسرَار بَلَاغتِه وبراعته، وآلةً في تحقيق مقاصده وغاياته؛ من الإقناع والإمتاع، وإظهار الحجّة، وبيان المحجّة، والتأثير في النفوس الموصوفة بالعناد والتمرُّد واللجاجة، حتّى تستسلم لتعاليمه وتنقاد لقوارع آياته.

وممّا ينبغي التنويه به كون المتشابه اللفظ أساساً هامّاً للدراسات

---

(1) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، تح: عامر الجزار، دار الحديث، القاهرة، مصر، (د، ر، ط)، 1425/ 2004، ص: 188. شرح الشفا للملا على القارئ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د،ر، ت، ط)، (1/ 576، 577). وينظر: بلاغة الاستفهام التقريري في القرآن الكريم – دراسة أسلوبية – لمحمد مختار الشيباني، كنوز الحكمة، الجزائر، (د، ر، ط)، 1432/ 2011، ص: 133، 134.

اللغويّة والنحويّة والبلاغيّة واللِّسانيّة على حدّ سواء؛ فله اليد الطولى في إثراء اللغة العربيّة بالألفاظ ومعانيها، حسب مقامات الكلام، وأحوال المخاطبين، وبيان دلالاتها العامّة والخاصَّة، المستفادة من السياقات المختلفة، وما يتعلّق بفقه اللغة؛ من الاشتقاق والتضادّ والاشتراك والمعرّب والدّخيل، ومَا اتَّفَقَ لفظه واختلف معناه، إلى غير ذلك من المباحث اللغويّة، فهو علم لا يكاد يستغني عنه العالم باللغة حتّى يَتَسَنَّى له الإحاطةُ بالدَّلَالات اللفظيّة، والمعاني اللغويّة، وكيفيّة توظيفها، وإيرادها في مقاماتها اللائقة بها، كما لا يَبْرَحُ المفَسِّرُ مفتقراً إليه؛ حتّى يستعين به على الفقه في كتاب الله، ومعرفة مُبهمِه ومبيَّنه، ومجمله ومُفَصَّلِه، ومُطْلَقِه ومقيّده، وما جاء فيه على سبيل العموم أو الخصوص، والعلم بدلالة الخطاب القرآنيّ وفحواه، ومفهومه ومنطوقه، كما هو مستند سَنيّ، حقيق أن يرجِع إليه الْحُفّاظ والقرّاء؛ فهو يحملهم على ضبط حِفظهم بأداء كلّ لفظ في موطنه، دونما التباس بالمتشابِه معه.

هذا وقد حَظِيَ المتشابه اللفظ بعناية كثير من علماء القرآن والبيان والتَّفسير من مقلٍّ ومستكثرٍ؛ وقد أفرده بعضهم بالتصنيف، واكْتَفَى البعض الآخر بالإشارة إليه في ثنايا كتابه[1]؛ وهو عمل المفسِّرين في الأغلب أَمْثَال الزمخشري في الكشّاف، والرازي في التَّفسير الكبير، وأبي حيّان في البحر المحيط، والألوسي في تفسيره، وابن عَاشُور في تحريره وتنويره.

ومن الذين أَفْرَدُوه بالتأليف؛ نذكر: الخطيب الإسكافي في درّة التنزيل وغرّة التأويل، ومحمود بن حمزة الكرماني في البرهان في توجيه متشابه

---

(1) ينظر: مقدمة تحقيق دّرة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (1/70– 85).

القرآن، وابن الزبير الغرناطي في ملاك التأويل، وابن جماعة في كشف المعاني في المتشابه من المثاني، والسيوطي في قَطْف الأزهار في كشف الأسرار، وأبا يحيى زكريا الأنصاري في فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن.

وقد علّق على هذا الإمامُ السيوطي رحمه الله بقوله: «... وقد أفرده بالتصنيف جماعة، أوّلهم– فيما أحسب– الكسائي، ونَظَمَه السخاوي، وأَلَّف في توجيهه الكرماني كتابه البرهان في تشابه القرآن، وأحسن منه درّة التنزيل وغرّة التأويل لأبي عبد الله الرازي، وأحسن منها كلّها: ملاك التأويل في متشابه التنزيل لأبي جعفر بن الزبير؛ وللقاضي بدر الدين بن جماعة في ذلك كتاب سمّاه كَشْفُ المعاني عن متشابه المثاني؛ وفي كتابي أسرار التنزيل المسمّى قطف الأزهار في كشف الأسرار من ذلك الجمُّ الغفير» اهـ[1].

أنماط المتشابه اللفظيّ في القرآن الكريم:

بعد الاستقراء الدقيق من علماء البيان القرآني ثبت أن الاختلاف الحاصل بين آيتين متشابهتين في معظم بنيتهما التركيبية، لا يكون إلا في جزء يسير من مكوناتهما اللفظية، وهو يشمل التراكيب كما يشمل الألفاظ والحروف على حدّ سواء. وفي ما يأتي أهمّ الفوارق الموجودة بين الآيات المتشابهة:

أ/ الاختلاف في الصيغة: كأن تأتي الأولى بالاسم والثانية بالفعل، أو

---

(1) معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي، (1/ 66، 67). الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، (3/ 339، 340). وقد استفدت أيضا، وبشكل كبير في جمع مدوّنة هذا البحث من كتاب: دليل المتشابهات اللفظية لمحمد الصغيّر، وكتابي ابن الجوزي: المدهش، وفنون الأفنان في عجائب علوم القرآن.

يكون الاختلاف في زمن الفعل ماضيا ومضارعا، أو في صيغهما الصرفية، أو في صيغ الاشتقاق.

ب/ الاختلاف في الإفراد والجمع: ويكون في الأسماء الظاهرة، وفي الضمائر، وفي صيغ الجمع.

ج/ الاختلاف في التذكير والتأنيث: ويكون في الأسماء الظاهرة أيضا، وفي الضمائر، وفي الأفعال المسندة إليها.

د/ الاختلاف في التعريف والتنكير: على أنّ التعريف يكون بالألف واللام تارة، وبالاسم الموصول أخرى.

هـ/ الاختلاف في اختيار الحروف: وتشمل حروف العطف والجرّ وبعض الحروف الأخرى.

و/ الاختلاف في الذكر والحذف: ويكون في الحروف والكلمات والضمائر، وفي الجمل وأشباهها.

ز/ الاختلاف في التقديم والتأخير.

ح/ الاختلاف في الفصل والوصل.

على أنّه ستتمّ الإشارة إلى هذه الأنماط عند دراسة الآيات القرآنية المتشابهة المتضمنة لسرد أحداث القصص القرآني على وجه الخصوص وفق ترتيبها في المصحف الشريف، متى كان ذلك متاحاً.

الفصل الأوّل

القسم النظريّ

بلاغة المتشابهات اللفظية في القصة القرآنية

إنّ المتأمّل في كلام العرب، وما يتألّف منه من ألفاظ، وما يتضمّنه من صيغ، وما يحويه من معان؛ يكتشف أهمّية التنوّع والاختلاف بين هذه الصيغ، ويطّلع على أهمّ الفروق الجوهرية بينها وبين المعاني الشريفة التي تؤدّيها، والدلالات اللغويّة والبلاغيّة التي تقصد إليها؛ فالعدول عن الفعل إلى الاسم، أو عن الفعل في زمن، إلى الفعل في زمن آخر في التركيب، لا يحصل عبثا؛ إنّما يحدث هذا لإدراك معنى، وإبراز دلالة لا يمكن تحصيلها إلّا عن طريق هذا العدول؛ هذا من وجه؛ وحتّى يكون الكلام متناسقا ومنسجما ومتلائما مع السياق الذي يرد فيه، والمقام الذي يقتضيه؛ من وجه آخر؛ وهذا مسلك دقيق جليل، لا ينساق إلا لمن تَمَرَّسَ اللغة حتّى انكشفت له أسرارها؛ وفي هذا المقام يقول ابن الأثير: «واعلم أيّها المتوشّح لمعرفة علم البيان أنّ العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى، لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك؛ وهو لا يتوخّاه في كلامه إلّا العارف برموز الفصاحة والبلاغة، الذي اطّلع على أَسْرَارها، وفَتَّشَ عن دفائنها؛ ولا تجد ذلك في كُلِّ كلام؛ فإنّه من أشْكَلِ ضروب علم البيان، وأَدَقِّهَا فهمًا، وأَغْمَضِها طريقًا»[1].

وقد كان لعلماء اللغة الحظُّ الأَوْفَر في إبراز الفروق اللغويّة، والدلالات المعنويّة، بين هذه الصيغ[2]؛ وإمامُهم في ذلك شيخ البلاغيّين

---

(1) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير الجزري، تح: كامل محمد محمد عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1419/ 1998، (1/ 416).

(2) ينظر: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للإمام الرازي، تح: أحمد حجازي السقا، المكتب الثقافي، القاهرة، مصر، ط1، 1409/ 1989، ص: 106، 107. مفتاح العلوم لأبي=

عبد القاهر الجرجانيّ رحمه الله إذ يقول: «الفرق بين الإثبات إذا كان بالاسم، وبينه إذا كان بالفعل، وهو فرق لطيف تمسّ الحاجة في علم البلاغة إليه. وبيانُه: أنّ موضوع الاسم على أن يَثبُت به المعنى للشيء، من غير أن يقتضي تجدُّدَه شيئًا بعد شيء؛ وأمّا الفعل فموضوعُه على أن يقتضي تجدُّدَ المعنى المثبَتِ به شيئا بعد شيء، فإذا قلت: (زيد منطلق)، فقد أثبتَّ الانطلاق فعلا له، من غير أن تجعله يتجَدَّدُ ويحدثُ منه شيئًا فشيئا؛ بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك (زيد طويل وعمرو قصير)، فكما لا يُقصَد ها هنا إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدَّدُ ويحدث، بل توجبُهما وتُثبتُهما فقط، وتقضي بوجودهما على الإطلاق، كذلك لا تتعرّض في قولك: (زيد منطلق)، لأكثر من إثباته لزيد.

وأماّ الفعل، فإنّه يقصد فيه إلى ذلك فإذا قلت: (زيد ها هو ذا ينطلق)، فقد زعمت أنّ الانطلاق يقع منه جزءا فجزءا، وجعلته يزاوله ويزَجّيه. وإن شئت أن تُحسّ الفرق بينهما من حيث يلطف، فتأمّل هذا البيت:

لا يألف الدرهم المضروب صرّتنا لكن يمرّ عليها وهو منطلق

هذا هو الحسن اللائق بالمعنى؛ ولو قلتَه بالفعل: (لكن يمرُّ عليها وهو ينطلق)؛ لم يحسن؛ وإذا أردت أن تعتبره بحيث لا يخفى أنّ أحدهما لا يصلح في موضع صاحبه؛ فانظر إلى قوله تعالى: «وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ» [الكهف: ١٨]؛ فإنّ أحداً لا يشكّ في امتناع الفعل ها هنا؛ وأنّ

=يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكّاكي، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1420/ 2000، ص: 308– 310. الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني، تعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط3، 1414/ 1993، (2/ 113، 133، 134).

قولنا: (كلبهم يبسط ذراعيه)، لا يؤدّي الغرض؛ وليس ذلك إلّا لأنّ الفعل يقتضي مزاولةَ وتجدُّدَ الصفة في الوقت، ويقتضي الاسم ثبوت الصفة وحصولَها، من غير أن يكون هناك مزاولة وتزجيّة فعلٍ؛ ومعنىً يحدث شيئاً فشيئًا»اهـ[1].

فالجرجانِيّ رحمه الله بيّن – بما لا مَنْفَذ فيه للشك – الفروق الدلاليّة بين هذه الصيغ من حيث الاستعمالُ، وساق الشواهد والأدلّة من كلام العرب، ومن القرآن الكريم؛ ما يعضد رأيه، ويقوّي مذهبه، ويُلجِم أفواه خصومه.

والْمُتَصَفِّحُ لكلام الله سبحانه، يجده حافلًا بهذه الاستعمالات اللغويّة والبلاغيّة الراقية؛ والتي من خلالها بَلَغَ القِمّةَ في الإعجاز، والروعة في البيان.

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ الآيات المتشابهة التي تناولت أحداث القصة القرآنية الواحدة حازت قصب السبق في تضمنها لهذه المعاني اللغوية والأساليب الفنية؛ حيث احتوت على الجانب الأوفر منها حسب ما تقتضيه غايات القصة القرآنية ومقاصدها وأهدافها.

---

(1) دلائل الإعجاز في علم المعاني لعبد القاهر الجرجاني، تقديم: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، (د، ر، ط)،1422/ 2002، ص: 200، 201.

المبحث الأول: بلاغة المتشابهات اللفظية في القصة القرآنية في سورة البقرة:

تنوعت مواضيع الآيات المتشابهة المتضمنة للقصص القرآني في سورة البقرة بشكل لافت للنظر؛ حيث افتتحت بذكر قصة آدم عليه السلام، ثم أردفت بذكر بني إسرائيل وما كان من تمردهم وغيّهم واستكبارهم رغم النعم الكثيرة والمستفيضة التي منّ الله تعالى بها عليهم دون غيرهم من الأقوام والأجناس والخلائق، وأتبع ذلك بذكر كلّ من موسى عليه السلام، وما كان من أمره مع قومه، وإبراهيم عليه السلام وما سيق من أخباره، وسنشير إليها كلّ في موضعه في ما يأتي من الكلام بإذنه تعالى.

الموضع الأول: في ذكر آدم عليه السلام.

قوله تعالى: «وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا» [البقرة: ٣٥].

وقوله سبحانه: «وَيَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا» [الأعراف: ١٩].

جاء الاختلاف في هاتين الآيتين المتشابهتين في موضعين أوّلهما نحوي والآخر بلاغي؛ وهما:

الأول: العطف في مستهل الآيتين؛ وممّا لا شكّ فيه أنّ الجملة المعطوفة تحمل من معاني الترتيب والتعقيب مع الفاء، مالا تقتضيه مع الواو أو غيرها.

وبالنظر إلى السياق القرآني نجد أنّ الآيات القرآنيّة يفسّر بعضها بعضا، ذلك أنّ آية البقرة ورد بعدها قوله سبحانه: «وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا» [البقرة: ٥٨]، في قصّة بني إسرائيل، فجاءت بالفاء لإفادة

معنى الترتيب والتعقيب، إذ لا يحصل الأكل من ثمار القرية وطعامها إلّا بعد دخولها؛ لذلك جاء التعبير بالفاء دون الواو، أمّا في قصّة آدم عليه السلام، فإنّ الله تعالى خاطبه بالفعل "اسكن" الدالِّ على الأمر، ومعلوم أنّ السكن والإقامة والاستقرار يكون بعد دخول الجنّة، ولا يلزم من ذلك وقوع الأكل من ثمار الجنّة بعد السكن، فقد يأكل قبل أن يسكن، فلمّا لم يرد في الآية ما يدعو إلى ترتيب الحدثين "الأكل والسكن" عبّر عن ذلك بالواو.

وآية البقرة الواردة في قصّة بني إسرائيل، يوضّح معناها ويجلّيه ما جاء في القصّة ذاتها في سورة الأعراف في قوله تعالى: «وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ» [الأعراف: ١٦١]، فجاءت بالواو، دون الفاء، للدلالة على عدم اختصاص الأكل بالسكن وتعلّقه به، فقد تدخل بستانا فتأكل منه وتسكن، وقد تسكن قبل الأكل أو بعده.

على أنّ الذي تقرّر ها هنا يناقضه في ظاهر الأمر ما جاء في آية الأعراف في قوله سبحانه: «وَيَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا» [الأعراف: ١٩]، فخالف المعهود الوارد في مثيلاتها من الآيات، حيث عطف فيها الأمر بالأكل على الأمر بالسكن بالفاء دون الواو.

وبالعودة إلى السياق اللفظي لقصّة آدم في سورة الأعراف، نجد أنّ الآية تقدّمها قوله سبحانه لإبليس عليه لعنة الله: «قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا» [الأعراف: ١٨].

ثمّ جاء الخطاب لنبيّه آدم عليه السلام آمِرًا له بالسكن الدالّ على زيادة الإكرام، وكأنّه قيل له: أُدخل الجنّة ساكنا مستقرّا، فقوله تعالى "اسكن" يفيد معنى الدخول الذي يكون قبل السكن، وهذا إكراما منه سبحانه لآدم عليه السلام، وبهذا يتّفق السابق واللاحق في آيات السورة، إذ أنّه سبحانه لمّا أمر

إبليس بالخروج من الجنّة، عطف ذلك بأمر آدم بدخولها، فانتظم السياق واتّضحت الدلالة المعنويّة من العطف بالفاء دون الواو[1].

قلت: وهذه المعاني تتراءى من بعيد في قوله سبحانه عن أهل الجنّة: «وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ» [الزمر: ٧٣]، ومعلوم أنّ تحيّة خزنة الجنّة لأهل الجنّة كانت بعد دخول المؤمنين للجنّة، وليس قبلها إلّا أنّ تعبير الآية يوحي أنّ التحيّة بالسلام وقعت قبل دخولهم إلى الجنّة، لمجيء الأمر بالدخول بعدها في قوله، «فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ».

والدلالة المعنويّة لقوله سبحانه "خالدين" هي التي تزيل اللّبس عن الآية، فقوله تعالى، «فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ» ينصرف إلى معنى السكن والاستقرار والإقامة الأبديّة، فكأنّ المعنى "بعد أن دخلتم، اسكنوها خالدين"، فكما أنّ معنى "اسكن" يدلّ على معنى "ادخل" في آية الأعراف، جاء لفظ "ادخلوها" ليدلّ على معنى "اسكنوها" في آية الزمر، مناصفةً، فهذه بتلك، والله أعلى وأجلّ وأعلم وأحكم!.

---

(1) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، (1/ 217– 219). البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 26– 28. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1411/ 1990، (3/ 5). ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (186/1، 187، 202– 204). كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 92، 93، 96، 97. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، محمد علي الصابوني، مكتبة رحاب، الجزائر، ط2، 1408/ 1988، ص: 21، 25، 26. تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور التونسي، دار سحنون، تونس، (د، ر، ت، ط)، ج8، ق2، ص: 54.

الثاني: ذكر لفظ الرغد في آية البقرة وحذفه من آية الأعراف،

وسرّ زيادة لفظ "رغدا" في آية البقرة، وحذفه من آية الأعراف، متعلّق بما استهلّت به كلّ آية[1]؛ ذلك أنّ آية البقرة استهلّت بإسناد الفعل إلى الكريم المنّان سبحانه، فزيدت لفظة "رغدا" إشعاراً بعظيم منّه، وسعة فضله وكرمه، ووافر رحمته وجوده، أمّا آية الأعراف، فإنّه لم يسند الفعل فيها إلى الله سبحانه، فلم يذكر فيها ما ذكر في البقرة، من النعيم الأوفر، فناسب ذلك حذف ما زيد فيها.

...

الموضع الثاني: في سياق ذكر آدم عليه السلام.

قوله تعالى: «قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» [البقرة: ٣٨].

وقوله تعالى: «قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى» [طه: ١٢٣].

فورد الفعل الماضي الدّال على الاتباع في الآية الأولى على وزن "فَعِلَ": "تَبِعَ"، أمّا في الآية الثانية فجاء على وزن "افْتَعَلَ": "اتَّبَع".

وكشف اللثام عن سرّ هذا التنوع الدقيق في اختيار الألفاظ في القرآن العظيم يستدعي تحليلًا من زوايا عدّة.

فباعتبار الأصلية والفرعية[2] فإنّ الوزن "فَعِلَ" هو الأصل، أمَّا "افْتَعَلَ" فهو فرع عنه، لذلك كان لزامًا أن يتقدّم الأصل على الفرع في الكلام فجيء

---

(1) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، (1/ 230، 231).

(2) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 190).

لفظ "تَبِعَ" في موقعه المطابق لمعناه مقدّما في أوّل الكتاب على لفظ "اِتَّبَعَ" الذي جاء متأخّرًا في موقعه في ثنايا الكتاب بما يناسب معناه الذي يفيد متابعة الأصل والتأخّر عنه.

وبالنظر إلى السياق اللفظي للآيات، فإنّ ما ورد في سورة طه جاء مسبوقا بقوله تعالى: «يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ» [طه: ١٠٨]؛ بنفس الوزن والصيغة، فكان من اللائق أن يتوافق[1] اللاحق مع السابق؛ مراعاةً لمقام الآيات وانتظام سياقها اللفظي والمعنوي في النظم القرآني بما يوافق غايته من الإقناع والإمتاع.

أمّا بالنظر إلى بنية الفعل الماضي من الناحية الصرفية؛ فإنّ للفعل الماضي صيغا وأوزانا عدّة، يرد بها في كلام العرب، وقد جاء في القرآن الكريم بعض منها، من ذلك ما سبق بيانه من صيغة "افتعل" من "فعل" مثل: "اتّبع" من "تبع"، والتي تدلّ على معنى الاجتهاد والمبالغة في تحصيل أصل الفعل[2].

---

(1) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، تح: عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1406/ 1986. ص: 27. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 22. وينظر: المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية لصالح الشثري، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1422 هـ، ص: 143. إلّا أن صاحب هذه الرسالة لم يزد على أن جمع أقوال العلماء واللغويين السابقين ونقلها دون تمحيص ولا مناقشة ولا تعليق؛ بل بدا لي أنه ينقل من أجل النقل ليس غير، فالنقل عنده وسيلة وغاية في الوقت ذاته، لذلك لم أعوّل عليه كثيرا، ولم أورده إلا استئناساً، وإفادةً للقارئ الكريم، وتحقيقاً للأمانة العلمية التي ننشدها في هذا العمل المتواضع.

(2) راجع: شرح شافية ابن الحاجب لرضي الدين الاستراباذي النحوي، تح:محمد محيي=

كما وردت صيغة "فَعَّلَ" و"أَفْعَلَ" من "فَعَلَ" مثل: "نَزَّلَ"، و"أَنْزَلَ"، من "نَزَلَ"، نقول: نزل، دخل، خرج، جلس. فإذا أخبرنا أنّ غيره صيّره إلى شيء من هذا، قلنا: أنزله، وأدخله، وأخرجه، وأجلسه. فأكثر ما يكون على "فَعَلَ"، إذا أردنا أنّ غيره أدخله في ذلك، يبنى الفعل منه على "أَفْعَلْتُ"[1]

كما تدخل "فَعَّلْتُ" على "أَفْعَلْتُ" إذا أردت تكثير العمل والمبالغة فيه؛ تقول: أغلقت الباب، وأغلقت الأبواب، وغلّقت الأبواب فقط، ولا نقول: غلّقت الباب، لعدم تصوّر معنى التكثير في مثله[2].

وقد تدخل "فَعَّلْتُ" على "فَعَلْتُ" لا يشركه في ذلك "أَفْعَلْتُ"، تقول: "كسرتها" و"قطعتها"، فإذا أردت كثرة العمل قلت: "كسّرتها" و"قطّعتها" و"مزّقتها"... و"جرّحته"، أي: أكثرت الجراحات في جسده[3]، ومنه قوله تعالى: «نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ» [آل عمران: ٣]، وقوله سبحانه: «وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا» [القمر: ١٢].

وإذا أنعمنا النظر في مقام الآيتين مرّة أُخرى، فإنّنا نجد آية طه قد سبقها بيان تفصيلي لغواية إبليس لآدم عليه السلام، وانحرافه عن الهداية والإيمان، إلى الغواية والعصيان، قال سبحانه وتعالى: «وَعَصَى آَدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى» بعد قوله: «فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا» وكأنّ المعصية أصبحت مألوفة

=الدين عبد الحميد وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د، ر، ط)، 1402/ 1982، (1/ 110).

(1) الكتاب لعمرو بن عثمان بن قنبر الملقّب بسيبويه، تعليق: إميل يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1420/1999، (4/ 167).

(2) ينظر: أدب الكاتب لابن قتيبة، تح: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1405/1985، ص: 460. شرح شافية ابن الحاجب، (83/1).

(3) ينظر: الكتاب لسيبويه، (4/ 175). أدب الكاتب لابن قتيبة، ص: 460.

لدى النّفس الإنسانية، مجبولة عليها، قال الله جلّ جلاله: «إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ» [يوسف: ٥٣]؛ وإنقاذها من أوحال الضلال والغواية؛ ومستنقعات الفساد والعماية؛ وإقلاعها عمّا ألفته واعتادته، من الانحراف والإسراف؛ وإرجاعها وانتشالها، والأخذ بيديها إلى رياض الإيمان والهداية، وحياض الرّشاد والإنابة؛ يحتاج إلى عزيمة وتحمّل وعناء ومصابرة ومجالدة ومعالجة[1]، وترويض وتمحيص وتعبيد وتجديد، فناسب ذلك في الآية الإتيان بالفعل "اِتَّبَعَ" على وزن "اِفْتَعَلَ" الذي يُشْعِرُ بتجديد الفعل[2]، وكأنّ الآية الكريمة توحي إلينا من طَرْفٍ خفيٍّ أن: جدِّدوا إيمانكم وجدّدوا إخلاصكم، وجدّدوا نياتكم، وجدّدوا صلتكم بالله وثقتكم به، واستسلامكم له، وانقيادكم لتعاليمه، كلّما أحسستم بنزغ من الشيطان في نفوسكم، وبضعف فيها أمام مقاومة أهوائكم.

أمّا في سورة البقرة فلم تتطرّق الآيات إلى ما كان من غواية إبليس لآدم عليه السلام، سوى إشارة عابرة في قوله تعالى: «فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا» [البقرة: ٣٦]، بما يوحي أنّ آدم عليه السلام على أصل خلقته وفطرته الإيمانيّة، ولم تكن مجرّدُ زلّةٍ لتؤثّر في أصالته، وصفاء روحه، ونقاء سريرته، وطهارة جوهره ومعدنه، فناسب ذلك إيراد الفعل على صيغته الطبيعيّة ووزنه الأصليّ "تبع" على وزن "فَعِلَ" الذي يُشعِر بالثبات على ما كان عليه وعدم مخالفته.[3]

---

(1) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 190، 191).

(2) كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 93.

(3) ينظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 93.

...

الموضع الثالث: في ذكر بني إسرائيل.

قوله تعالى: «وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ» [البقرة: ٤٨].

وقوله تعالى: «وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ» [البقرة: ١٢٣].

حيث وردت الآية الأولى بتقديم الشفاعة على العدل، وهو الفداء[1]. ووردت الآية الثانية بتقديم الفداء على الشفاعة؛ ذلك أنّ الآية الأولى جمعت– على الترتيب– كلّ الأمور التي يدفع بها المكروه عن الأعزّة في الدنيا، ونفت حدوثها في الآخرة. فالعرب تُدافع عن العزيز بغاية القوّة والجلَد، كما يدفع الوالد عن ولده، فإذا عجزوا، عادوا بوجوه الضراعة، وصنوف المسألة والشفاعة، فحاولوا بالملاينة ما قصروا عنه بالمخاشنة، فإذا عجزوا، عرضوا الفداء بالمال أو غيره. وعلى مقتضى التقاليد العربية، نفت الآية جدوى تلك التقاليد في الآخرة[2].

ثمّ إنّه سبحانه «قدّم الشفاعة في هذه الآية، قطعا لطمع من زعم أنّ آباءهم تشفع لهم، وأنّ الأصنام شفعاؤهم عند الله»[3]، وأخّرها في الآية الأخرى، ليحصل بذلك جمع المعاني المستفادة من الآيتين معا، فقدّمت

---

(1) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير، تقديم: عبد القادر الأرناؤوط، دار الفيحاء، دمشق، سورية، ط1، 1414/ 1994. (1/ 130).

(2) ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (1/ 220، 221).

(3) البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 27. وللاستزادة يرجى الاطلاع على: المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية لصالح الشثري، ص: 392، وما بعدها.

الشفاعة في الآية الأولى مع الفعل "يقبل"، وأخّرت في الثانية مع الفعل "تنفعها"، فيكون تقدير الآيتين معاً: لا يقبل منها شفاعة، فتنفعها تلك الشفاعة، ومعلوم أنّ القبول مقدّم على النفع.

أمّا وجه تقديم العدل في الآية الثانية، فلأنّ لفظ القبول الحاصل معناه من الفعل "يقبل" مقدّم أيضا، وهو أنسب له في هذا الموضع، فيحصل بمجموع الآيتين هذا المعنى الإجمالي: لا يقبل منها شفاعة، فتنفعها تلك الشفاعة، ولا يقبل من عدل وفداء، فيؤخذ منها ذلك العدل والفداء، والله أعلم بما أراد.

وهذا التوجيه أقرب إلى الصواب، لموافقة المبنى فيه للمعنى؛ إلا أنّ ذكره أنّ المراد في الآيتين هم العرب فقد أبعد النجعة؛ ذلك أنّ الآيتين كلتيهما وردتا في سياق ذكر بني إسرائيل، فقد سبقتا بقوله تعالى: «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ» [البقرة: ٤٧، ١٢٢]،فالخطاب موجه لبني إسرائيل وليس للعرب؛ يحثهم فيه «على اتباع الرسول النبيّ الأمّيّ الذي يجدون صفته في كتبهم ونعته واسمه وأمره وأمّته، يحذّرهم من كتمان هذا وكتمان ما أنعم به عليهم، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم من النعم الدنيوية والدينية، ولا يحسدوا بني عمّهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم ولا يحملهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه، والحيدة عن موافقته، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين»[1].

فإن كان مراده بالعرب عادة العرب وأخلاقهم، وأن القرآن الكريم

---

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، (1/ 278).

خطاب للعرب ،فجاء بما يوافق عادات العرب وأخلاقهم حتى يتسنى لهم فهمه لفظاً ومعنىً فذاك؛ وإن كان مراده أن الخطاب في الآيتين موجه للعرب فقد أبعد النجعة وجانب الصواب والله أعلم.

أمّا من رأى أنّ تقديم الشفاعة في الآية الأولى، راجع إلى ما تقدّم من قوله تعالى: «أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» [البقرة: ٤٤]. فحصل بذلك طمعهم أن يكون أمرهم للناس بالبرّ شفيعا لهم يوم القيامة، ولتوهّمهم هذا قدمت الشفاعة تأكيداً لنفيها لهم.

وأنّ الآية الثانية لم يتقدّم فيها ما يستدعي هذا المعنى، فقدّم فيها ذكر الفئة التي هي أولى وأحرى في كمال التخلّص، على ما عهد في الدنيا لو أمكنت[1].

فإن كان من وجاهة في هذا التعليل؛ إلاّ أنه لا يرقى إلى مستوى التوجيه الأوّل، فهو أحوط وأشمل وأصحّ من جهة البلاغة لولا ما بيّنّاه من اضطراب في قوله على الآيتين.

ومثل هذا، من رأى أنّ التقديم والتأخير في الآيتين عائد إلى ميول الناس وغرائزهم، فمن كان ميله إلى حبّ المال أشدّ من حبه لنفسه، فإنّه يقدّم الشفعاء على الفداء، ومن كان ميله إلى حبّ نفسه أشدّ من حبّه للمال، قدّم الفداء على الشفاعة[2].

بل إنّ هذا الأخير أضعفُها، وأبعدها عن معنى الآيتين، فما برح الناس

---

(1) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 196، 197).

(2) ينظر: التفسير الكبير للإمام الرازي، (3/ 51). فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 24.

منذ أن وطئت أقدامهم هذه البسيطة يبذلون الغالي والرخيص فداء لأنفسهم، ويؤثرونها على كلّ شيء، ولا يؤثرون عليها شيئاً.

...

الموضع الرابع: في بني إسرائيل.

قوله تعالى: «وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ» [البقرة: ٤٩].

وقوله عزّ وجلّ: «وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ» [الأعراف: ١٤١].

وقوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ» [إبراهيم: ٦].

والكلام عن الآيات في موضعين:

الأول: يدور حول الفرق بين ما جاء في آية البقرة من قوله تعالى: "نَجَّيْنَاكُمْ" من الفعل "نجّى" على وزن "فَعَّلَ"، وما جاء في الآيتين الأخريين، من الأعراف وإبراهيم من قوله تعالى: "أَنْجَيْنَاكُمْ" " أَنْجَاكُمْ" من الفعل "أنجى" على وزن "أَفعَلَ".

ورفع الستار عن لطائف الفرق بين الصيغتين يتأتّى دومًا بالرجوع إلى السياق القرآني المتضمّن للآيات محلّ الدراسة: فآية البقرة سبقها تذكير للبشر جميعا– وبنو إسرائيل منهم– بنعم الله وآلائه عليهم؛ فلقد كرّمهم وأوجدهم من عدمٍ، وعاملهم برحمته وفضله ومنّه وأغدق عليهم بأرزاقه

وعطاياه سبحانه، كما تصدّرت سردًا لنعم الله وآلائه وعطاياه ومنائحه الجليلة الجمّة التي أفاضها على بني إسرائيل خاصّة وأغدقها عليهم.

وفي خضمّ هذه البحبوحة من النعم المتوالية على بني إسرائيل دون غيرهم، لا يزالون في إصرارهم على الكفر، وغيّهم وعنادهم وجحودهم واستكبارهم، فكان من المناسب للآية أن تأتي بالفعل في صيغة التضعيف التي تفيد الكثرة[1] كما جاء بذلك البيان في مستهلّ هذا المبحث[2] .

أمّا الآيتان الأخريان فلم يرد فيهما ما يستدعي الإتيان بصيغة التكثير والمبالغة، حتّى إنّه تَمّ التصريح بذلك في آية إبراهيم في قوله تعالى: «اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» [إبراهيم: ٦]، فذكر نعمة واحدةً فقط؛ وهي التي يوليها بنو إسرائيل كبيرَ اهتمام؛ ذلك أنّ إنقاذهم من موت محقّق، وهلاك عامّ، يأتي على الأخضر واليابس، وإبدال ذلك كلّه بعيش رغيد وحياة آمنة، أعظم ما يؤمله ويتمنّاه بنو إسرائيل – بل ويبذلون كلّ غال ونفيس، من أجل البقاء على قيد الحياة، وإن كانت ذليلة – وغضَّ الطرفَ عن النّعم الأخرى من غير تجاهل لها؛ بل لأنّ السياق الحالي والمقامي لا يقتضي ذكرها ها هنا؛ لذلك جاء التعبير عن الفعل الماضي بصيغة: "أنجى" على وزن "أفْعَلَ".

هذا بالنظر إلى السياق المعنوي للآيات القرآنية الحكيمة؛ أمّا بالنظر إلى السياق اللفظي لآيات الكتاب العزيز، فقد ورد التعبير بنفس الفعل الذي يفيد الإنجاء على الصيغتين السابقتين في موضعين آخرين من القرآن، وهما قوله تعالى: «وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ» [النمل: ٥٣]. وقوله

---

(1) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 198، 199).

(2) ينظر ص: 30– 32، من هذه الرسالة.

سبحانه: «وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ» [فصلت: ١٨]؛ ذلك أنّ ما ورد في سورة النمل، جاء موافقًا لما بعده في قوله جلّ شأنه: "فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ"، "وَأَمْطَرْنَا" ، "وَأَنْزَلَ" ،"فَأَنْبَتْنَا" ، فجاءت هذه الأفعال كلّها على وزن واحد هو: "أَفْعَل".

في حين، إنّ ما ورد في سورة فصّلت قد وافق ما قبله في قوله سبحانه: "وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ"، وما بعده في قوله تعالى: "وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ" ؛ وهي كلّها على وزن "فَعَّلَ" بالتشديد[1].

الثاني: يدور حول الفصل في آية البقرة، والوصل في آية إبراهيم، فجاءت آية البقرة بفصل "يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ" عمّا قبلها، بينما وردت بالوصل بالواو في آية إبراهيم.

ويذكر الإسكافي علّة ذلك فيقول: «والقول في ذلك أنّه إذا جعل "يُذَبِّحُونَ" بدلا من قوله "يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ" لم يحتج إلى الواو، وإذا جعل قوله: "يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ" عبارة عن ضروب من المكروه، هي غير ذبح الأبناء، لم يكن الثاني إلّا بالواو، وفي الموضعين يحتمل الوجهان، إلّا أنّ الفائدة التي يجوز أن تكون خصّصت لها الآية في سورة إبراهيم بالعطف بالواو، هي أنّها وقعت هنا في خبر قد ضَمِن خبراً متعلِّقاً به، لأنّه قال قبله: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ» [إبراهيم: ٥]. ثمّ

---

(1) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 143. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 424. المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية لصالح الشثري، ص: 141، 142.

قال: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ»، فضمن إخبارُه عن إرساله موسى بآياته، إخباره عند تنبيهه قومَه على نعمة الله، ودعائهم إلى شكرها، فكان قوله «وَيُذَبِّحُونَ» في هذه السورة في قصّة مضمّنة قصّة تتعلّق بها، هي قوله تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا» [إبراهيم: ٥]، والقصّة المعطوفة على مثلها، يقوى معنى العطف فيها، فيختار فيما كان يجوز فيه العطف على سبيل الإيثار، لا على سبيل الجواز، وليس كذلك موقع "يُذَبِّحُونَ" في الآية التي في سورة البقرة. لأنّه تعالى أخبر عن نفسه بإنجائه بني إسرائيل، وهناك أخبر عن موسى عليه السلام، أنّه قال لقومه كذا، بعد أن أخبر عنه أنّه أرسله إليهم بآياته، فافترق الموضعان من هذه الجهة»[1].

---

(1) درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (1/ 224– 226). وينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 28. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 200– 202). كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 95، 96. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 25. تفسير الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لمحمود بن عمر الزمخشري، ومعه (الانتصاف لابن المنير)، رتبه: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415/ 1995، (2/ 519، 520). التفسير الكبير للإمام الرازي، (19/ 67). تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، تح: عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1413/ 1993، (1/ 351). البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي، (1/ 116، 120). الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي، (3/ 341). معترك الأقران في إعجاز القرآن لجلال الدين السيوطي، (1/ 67، 68). روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لمحمود الألوسي، دار الفكر، بيروت، لبنان، (د، ر، ط)، 1414/ 1994، (8/ 273، 274). تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور التونسي، (13/ 191، 192).

إنّ معنى كلام الإسكافي أنّ آية البقرة من كلام الله تعالى، فلم يرد فيه تعدّد المحن، فوردت على البدل، وعلى الاستئناف، مفسّرة لما قبلها، وهو الأولى؛ وكأنّه قد قال: وما ذاك؟ فقال: يذبّحون أبناءكم.

أمّا آية إبراهيم، فهي من كلام موسى عليه السلام، فعدّد المحن عليهم، وكان مأمورا بذلك في قوله تعالى: «وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ» [إبراهيم: ٥]، فناسب العطف على سوم العذاب للدلالة على أنّه نوع آخر؛ كأنّه قال: يعذبونكم ويذبّحون أبناءكم، فبان الفرق في الموضعين، ومناسبتهما معاً.

...

الموضع الخامس: في بني إسرائيل أيضا.

قوله تعالى: «وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» [البقرة: ٥٧][1].

وقوله سبحانه: «وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» [آل عمران: ١١٧].

وقوله سبحانه: «وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» [يونس: ٤٤].

فالآيات الأولى وردت بذكر "كان" الناسخة، واسمها، ولم تحذف إلّا في آية آل عمران، ويونس.

وإذا أنعمنا النظر في سياق الآيات الأولى، ألفيناه حديثا وإخباراً «عن قوم ماتوا وانقرضوا»[2]، فكلّ من آية البقرة، والأعراف، والآية الثانية من النحل، إنّما جاء الإخبار فيها عن اليهود خاصّة. بدليل قوله تعالى: «وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ

---

(1) وهي أيضا في المواضع الآتية: [الأعراف: 160]، [التوبة: 70]، [النحل: 33]، [النحل: 118]، [العنكبوت: 40]، [الروم: 9].

(2) البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 28.

تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» [البقرة: ٥٥ – ٥٧]، وقوله سبحانه: «وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» [الأعراف: ١٦٠]، وقوله جلّ شأنه: «وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» [النحل: ١١٨].

وما تبقّى منها، فجاء الإخبار فيها عن الأمم السابقة، والأقوام الغابرة، بلفظ العموم، دون تخصيص قوم بعينهم، فقد قال تعالى: «أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» [التوبة: ٧٠]، وقال سبحانه: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» [النحل: ٣٣]، وقال جلّ شأنه في بيان طبيعة العذاب المخصوص بكلّ قوم، ممّن سبق على حدة: «فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» [العنكبوت: ٤٠]، وقال عزّ من قائل: «أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ

وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» [الروم: ٩].

فلمّا كان سياق الآيات في الإخبار عن القرون الماضية، حسن ذكر الناسخ "كان"، لإحراز معنى المضيّ والفوات والانقراض.

أمّا آية آل عمران، فهي خطاب لمن عاصر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، لذلك جاء الخطاب بالفعل المضارع "ينفقون"، المنصرفة دلالته على الحاضر والمستقبل، «فلم يكن لدخول كان التي تقتضي وقوع الشيء فيما تقدّم من الزمان، معنى تحرزه»[1].

أمّا آية يونس، فقد استعاضت عن الجملة الاسمية المنسوخة "كانوا"، باسم لكنّ "الناس"، ولا يختلف معناها عن معنى آية آل عمران البتّة، إلّا ما أحرزته من معنى التوكيد، والتنزيه لله تعالى أن يكون ظالما لهم.

...

الموضع السادس: في مخاطبة بني إسرائيل.

قوله تعالى: «وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ» [البقرة: ٥٨].

وقوله تعالى: «وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ» [الأعراف: ١٦١].

ورد الاختلاف في هاتين الآيتين في ثلاثة مواضع:

---

(1) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 313).

الأول: جاءت آية البقرة بتقديم الدخول على القول، أمّا آية الأعراف فعلى العكس منها، حيث قدّم القول على الدخول. «والمعروف أنّ السجود قد يكون شكرا على النِّعم، والاستغفار طلبا للعفو من الذنوب، والقوم في الموضعين منعم عليهم ومخطئون، فتقديم السجود في البقرة على الاستغفار تغليب لجانب الشكر على جانب الاستغفار، وهذا التغليب مبعثه أمران:

الأوّل: أنّ الله قد حثّهم– صراحة– على الشكر في معرض الحديث.

الثاني: أنّ نعمة الله عليهم في البقرة أظهر وأكمل منها في الأعراف.

وذلك لاشتمال الحديث في البقرة على بعثهم بعد الموت بالصاعقة، في قوله تعالى: «وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» [البقرة: ٥٥ – ٥٦]، وهذه نعمة جليلة. كما وصف الأكل بالرغد: «فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا» [البقرة: ٥٨]، وقد فسّر الرغد بالسعة، ولم يأت هذا الوصف في الأعراف...

فظهور كمال النعمة في البقرة، اقتضى تقديم الأمر بالسجود، لأنّ السجود مظهر عظيم من مظاهر شكر النعم، ثمّ روعي جانب الخطيئة في الأعراف، فقدّم ما يناسبه، وهو القول بالحطّة، لزوال ما اقتضى التقديم في آية البقرة»[1].

وقد أخذ المطعنيّ هذا التوجيه من الإمام السيوطيّ رحمه الله[2]، فقد

---

(1) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية لعبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط1، 1413/ 1992، (2/ 151، 152).

(2) ينظر: تفسير الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لمحمود بن عمر الزمخشري، (2/ 164). إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير=

أشار إلى هذه المعاني في الآيتين، من غير ترتيب بينها، ولم يُرجع الاختلاف في الآيتين إلى التفنّن في الفصاحة، وإخراج الكلام على أساليب مختلفة، كما زعم المطعنيّ في تعليقه على الآيتين.

على أنّ لهذا الأخير فضل ترتيب هذه المعاني، بعد الذي أوثر عن السابقين من خلاف في توجيه الآيتين، فالزمخشريّ ومن وافقه، يعلّلون التقديم والتأخير في هذا الموضع بعدم التناقض، وحجّتهم أنّ المأمور به هو الجمع بين الأمرين: القول بالحطّة، والدخول ساجدين، من غير اعتبار الترتيب بينهما، وسواء قدّموا الحطّة أو أخّروها، فهم جامعون في الإيجاد بينهما[1].

أما الخطيب الإسكافي، فقد أرجع ذلك إلى كون القرآن الكريم حكى المعنى دون اللفظ، ومادام الأمر كذلك، فلا غرابة[2].

الثاني: جاءت آخر كلمة في الآية بالعطف والوصل في البقرة، وبالفصل في الأعراف، ذلك أنّ آية البقرة أسند فيها الفعل إلى الله سبحانه وتعالى، في قوله: "وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا"، فحسن العطف والوصل لأنّ الاتّصال هنا أشدّ وأقوى وأبلغ، فقال: "وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ"، أمّا آية الأعراف، فقد أسند الفعل فيها إلى ما لم يسمّ فاعله: "وَإِذْ قِيلَ"، فكان اللائق فيها حذف الواو، ليكون الكلام استئنافا، لاختلاف المسند في الموضعين.

=أبي السعود)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط4، 1414/ 1994، (3/ 283). تفسير البحر المحيط لأبي حيّان الأندلسي، (4/ 407).

(1) الراغب في التفصيل، ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (1/ 231، 232).

(2) ينظر: الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي، (3/ 341).

وهذا التعليل البلاغيّ من الإمام الكرماني[1]، أراه وجيها في الآيتين، بخلاف بعض التوجيهات الأخرى، التي تتّسم بالتكلّف، وتحميل اللفظ ما ليس من معناه، وإنّي لأجد في نفسي بأسا وفرَقا من إيرادها، وفهمِ كلامِ العليم الخبير وِفْقَهَا، وبمقتضاها، وكما قال الصدّيق رضي الله عنه: «أيّ أرض تقلّني، وأيّ سماء تظلّني، إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم»[2].

على أنّ صاحب التفسير الكبير ذكر توجيها آخر مفاده أنّ «آية الأعراف ذُكر فيها أمران: أحدهما قول الحطّة، وهو إشارة إلى التوبة، وثانيهما دخول الباب سجّدا، وهو إشارة إلى العبادة، ثمّ ذكر جزاءين أحدهما قوله تعالى: "نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ"، وهو واقع في مقابلة قول الحطّة، والآخر قوله: "سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ"، وهو واقع في مقابلة دخول الباب سجّداً، فترْك الواو يفيد توزّع كلّ واحد من الجزاءين على كلّ واحد من الشرطين، وأمّا في سورة البقرة فيفيد كون مجموع المغفرة والزيادة جزاء واحداً لمجموع الفعلين؛ أعني دخول الباب، وقول الحطّة»[3].

الثالث: في الفرق الجوهريّ بين جَمْعِ التَّكسير، والجمع السالم، وهو أَنَّ الأوّل يفيد الكثرة، والثاني يفيد القلّة؛ فلمّا سبق آية البقرة ذِكرٌ مستفيض للجرائم الكثيرة التي ارتكبها بنو إسرائيل على فَظَاعتِها وشناعتها، كان

---

(1) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 28، 29. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 26، 27.

(2) جامع البيان في تأويل القرآن(تفسير الطبري) لمحمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1418/ 1998، (1/ 343). تفسير القرآن العظيم لابن كثير، (1/ 142). تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور التونسي، (1/ 516).

(3) التفسير الكبير للإمام الرازي، (15/ 30).

المناسب لمقام الآية الكريمة أن يرد التعبير عن هذه العظائم بلفظ "خطايا"، الموضوع للجمع الأكثر.

في حين أُسْدِل الستار عن هذه الخطايا، وحجبت في خضمّ بحبوحة النعم الجمّة الغفيرة، المسداة لبني إسرائيل في آية الأعراف، فكان من اللائق لمقامها أن تأتي بصيغة الجمع السالم: "خطيئات" الموضوع للجمع الأقلّ، والله أعلم.

ثمّ إنّ آية البقرة جاء الفعل فيها مسندًا إلى الله تعالىّ في قوله: "وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا"، فوافق ذلك ما يليق بجوده وكرمه، وسعة رحمته ومغفرته؛ فأتى باللفظ الموضوع للشمول، ليصير كالتوكيد بالعموم، لو قال: نغفر لكم خطاياكم كلّها أجمع[1].

ولمّا لم يسند الفعل في سورة الأعراف إلى نفسه، تبارك اسمه وجلّ شأنه، وإنّما قال: "وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ"، فلم يسمِّ الفاعل، أتى بلفظ "خطيئاتكم"، وإن كان المراد بها الكثرة، كالمراد بالخطايا، إلّا أنّ الغاية من هذا التصريف، هي بيان الفرق بين ما يؤتى به على الأصل، وبين ما يعدل عنه إلى الفرع[2].

...

الموضع السابع: يحكي تمرد بني إسرائيل وإعراضهم.

قوله تعالى: «فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ» [البقرة: ٥٩].

---

(1) ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (1/ 229، 230). البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 29.

(2) ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (1/ 230).

وقوله تعالى: «فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ» [الأعراف: ١٦٢].

جاءت آية الأعراف بزيادة الجارّ والمجرور "منهم"، بينما حذف في آية البقرة؛ ذلك أنّ آية البقرة سيقت مساق العموم، دون تقييد أو تخصيص، فيفهم منها أنّ المراد بالظالمين الذين ظلموا من المخاطبين بقوله: "ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ"، أمّا آية الأعراف ففيها ما يقتضي زيادة شبه الجملة "منهم"، وهو ما يدلّ عليه قوله تعالى: «وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ» [الأعراف: ١٥٩]، وقوله سبحانه: «وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» [الأعراف: ١٦٨]. فلمّا بيّن سبحانه أنّ في قوم موسى أناسا صالحين، وأناسا ظالمين، زيدت "منهم"، حتّى ينصرف الكلام إلى الظلمة منهم، دون الصالحين المبرّئين من تهمة التغيير والتحريف والتبديل، المشار إليها في الآية.

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الدرّة في بيانه لعلّة الحذف والزيادة في الآيتين، وتبعه خلق ممّن يعتدّ بقولهم، ويؤخذ برأيهم[1].

على أنّ من لطائف صيغة العموم الواردة في البقرة، ما ذكره صاحب التحرير والتنوير، من أنّ البلاء إذا نزل بأمّة فإنّه لا يختصّ بالظالمين دون غيرهم، وإنّما يعمّ الصالحين أيضا، وهذا من سنن الله في تصريفه لشؤون

---

(1) ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (1/ 236، 237). البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 30. كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 98. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 27.

الخليقة «وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا»[1].

...

الموضع الثامن: في ذكر موسى عليه السلام.

قوله سبحانه: «وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ» [البقرة: ٦٠].

وقوله تعالى: «وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا» [الأعراف: ١٦٠].

ومدار المسألة حول لفظتي "انفجرت" في البقرة، و"انبجست" في الأعراف، وذلك أنّ الانبجاس ظهور وهو دون الانفجار، الذي يعني انصباب الماء بكثرة، والانفجار أبلغ، لما ذكر بعدها من قوله تعالى: "كُلُوا وَاشْرَبُوا" فاحتيج إلى لفظ بليغ، أمّا في الأعراف ففيها: "كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ" وليس فيها "واشربوا"، فلم يبالغ فيه[2]. والله أعلم.

...

الموضع التاسع: في بيان كفر بني إسرائيل وظلمهم.

قوله تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ» [البقرة: ٦١].

وقوله سبحانه: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ» [آل عمران: ٢١].

---

(1) ينظر: تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور التونسي، (9/ 145). والآية من سورة: [الأحزاب: 62].

(2) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 30. كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 98، 99.

وقوله سبحانه: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ» [آل عمران: ١١٢].

إنّ اللافت للنظر في الآيتين أمران:

الأول: ورود لفظ "النبيّين" في البقرة بصيغة الجمع المذكّر السالم، وروده في آل عمران بصيغة جمع التكسير "الأنبياء"؛ ذلك أنّ ما جاء في سورة البقرة وافق ما قبله وما بعده من تعدّد الجموع السالمة، وهي: "المحسنين، مفسدين، الصابئين، الخاسرين، الخاسئين، المتقين..." بخلاف مثيلتها في آل عمران[1] والله أعلم.

الثاني: مجيءُ لفظ "الحقّ" معرّفا بالألف واللام في آية البقرة، ومنكّراً في الموضعين من آل عمران؛ ذلك أنّ البقرة سيقت في معرض الحديث عن قصة قوم عُرفوا، وعرفت أفعالهم، ومضت أزمنتهم وأحوالهم، واشتهروا واشتهر فعلهم بوقوعه منهم[2]، بدليل قوله تعالى: "ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ"[3]، وجاء لفظ "الحقّ" معرفة لأنّهم يعرفون الحقّ الذي من أجله تقتل النفوس، فيكون إمّا بقتل نفس مؤمنة لم يجب عليها القتل، وإمّا بالردة عن الدين، وإمّا بالزنى مع الإحصان. وهذا معلوم لديهم من دينهم[4]، إلّا أنّهم قتلوا الأنبياء من غير أن يرتكبوا شيئا من هذه الأمور الثلاثة المعلومة

---

(1) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 30، 31.

(2) ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (1/ 239).

(3) ينظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 99.

(4) ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (1/ 239، 240). ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 216، 217).

لديهم؛ فلأجل هذا جاء لفظ "الحقّ" معرّفا بالألف واللام الذي يفيد العهد المسوّغ للقتل المقرّر في شريعتهم[1].

أمّا آيتا آل عمران، فنزلتا في اليهود الموجودين زمن النبيّ صلى الله عليه وسلّم، فهم قوم لم يمضوا ولم ينقضوا بدليل قوله تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ" وقوله تعالى: "فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ" وقوله سبحانه: "لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى"[2]، وهؤلاء كانوا حريصين على قتل النبيّ صلى الله عليه وسلّم، ولذلك دسّوا له السمّ في الطعام، ولكنّ الله تعالى عصمه منهم؛ فجاء لفظ "حقٍّ" منكّرا ليكون أعمّ، فتقوى الشناعة عليهم والتوبيخ لهم؛ لأنّ قوله سبحانه: "بِغَيْرِ حَقٍّ" بمعنى قوله: ظلما وعدوانًا[3]، وبغير سبب ولا شبهة يمكن التعلق بها؛ وذلك أوغل في ذمّهم وسوء حالهم[4]، وشناعة فعلتهم، وخبث طويتهم. والله أعلم.

...

الموضع العاشر: في بني إسرائيل أيضا.

قوله تعالى: «وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ» [البقرة: ٩٥].

---

(1) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 217).

(2) ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (1/ 241). كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 99، 100.

(3) ينظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 100.

(4) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 215).

وقوله تعالى: «وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ» [الجمعة: ٧].

وهما آيتان متشابهتان لم تختلفا إلّا في حرف النفي، فجاءت آية البقرة معبّرة عن النفي بـ "لن" في حين آية الجمعة عبّرت عنه بـ "لا".

وكشف اللثام عن دواعي هذا الاختلاف، لا يتأتّى إلّا بالرجوع إلى سياق الآيتين في النصّ القرآنيّ. ذلك أنّ آية البقرة لمّا كانت مفتتحة بشرط علّقت صحّته بتمنّي الموت، ووُقوع هذا الشرط غاية ما يطلبه المطيع، ولا مطلوب وراءه على ما ادّعوه لأنفسهم، وهو: أنّ لهم الدار الآخرة خالصة من دون غيرهم، وجب أن يكون ما يبطل تمنّي الموت المؤدّي إلى بطلان شرطهم أقوى ما يستعمل في بابه، وأبلغه في المعنى، وينتهي شرطهم به، فكان ذلك بلفظة "لن" التي هي للقطع والثبات، كما أنّها أبلغ في النفي من غيرها عند كثير من أئمّة العربية، ثمّ زاد تأكيدها بقوله تعالى "أبدا"، ليُبطِل تمنّي الموت الذي يُبطل دعواهم بغاية ما يبطل به مثله، إذ ليس بعد حصول الدار الآخرة خالصة لأمّة من الأمم سؤال لسائل ولا مطالب لطالب، فهي وحدها الغاية والأمنية والمراد والمأمول.

أمّا آية الجمعة فإنّ الشرط الذي علّق به تمنّي الموت دون الشرط الأوّل؛ لأنّه قال: «قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» [الجمعة: ٦]، وليس زعمهم أنّهم أولياء لله من دون الناس المطلوبَ الذي لا مطلوب وراءه؛ لأنّهم يطلبون بعد ذلك إذا صحّ لهم هذا الوصف دار الثواب.

فلمّا كان الشرط في هذا الموضع قاصرا عن الشرط في المكان الأوّل ودونه، ولم تكن الدعوى دعوى غاية المطلوب والمأمول، لم يحتج في نفيه

وإبطاله إلى ما هو غاية في بابه، فاقتصر على "لا"، فجاء كلّ على أتمّ مناسبة لمقامه، إذ لمّا كان الشرط في آية البقرة أقصى غايات المدّعين، ورَدَ إبطالُ ادّعائهم بأبلغ حروف النفي، وهو "لن"، ولمّا كان الشرط في آية الجمعة دون الأوّل أُبطل بحرف النفي "لا" الدالّ على مطلق النفي من غير مبالغة. والله أعلم[1].

على أنّني بقيت مدّة ليست بالقصيرة أفكّر في الآيتين؛ أطلق العنان لفكري سابحا في بحر معاني هذين الحرفين، الواردين في هذين الموضعين من كتاب الله تعالى، ومبدئاً ومعيداً، إلى أن اهتديت إلى معنىً من معاني "لا"، تراءى لي من بعيد؛ من زاوية استقلاليَّتِهِ عن العمل في الفعل المضارع المجاور له من بعده؛ ذلك أنّ اللام النافية لا تعمل في الفعل المضارع، ولا تؤثّر في حركته الإعرابيّة، وهذا يستلزم استقلاليّة معنى اللام عن الزمن ككلّ.

فالذي يظهر لي والله أعلم، أنّ معنى اللام مطلقٌ غيرُ مقيّدٍ بزمن ما. شأنه في ذلك شأن الجملة الاسميّة، التي بسطنا القول فيها في غير هذا الموضع[2].

وقد ورد على هذا المعنى قوله تعالى: «وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا» [الكهف: ٤٩].

فإنّ الله تبارك وتعالى نفى الظلم عن نفسه المقدّسة جلّ جلاله، وليس

---

(1) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، (1/ 258– 260). البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 32. كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 103، 104. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 33، 34.

(2) ينظر: ص: 24، وما بعدها، من هذه الرسالة.

هذا النفي مقيّدا بزمن معين؛ بل هو مطلق أبديّ عامّ على جميع مخلوقاته، فهو الحاكم العدل الذي لا يجور ولا يظلم، جلّ في علاه.

وإذ قد تبيّن هذا، فإنّه يلزم منه أنّ اللام من أبلغ حروف النفي،وهذا المعنى سافرٌ جليّ في سياق الآيتين؛ إذ أنّ آية الجمعة هي الأصل في هذا الباب؛ ذلك أنّ مزيّة كون الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس، لن تتحقّق، ولن تحصل إلّا إذا كانوا أولياء لله حقّا، وهذه علاقة تلازمية، لازِمُها آية الجمعة وملزومُها آية البقرة، فولاية الله تستلزم كونَ الدار الآخرة خالصةً للوليّ:

الولاية ⟵ الجنّة

فلهذا جاء التعبير في آية الجمعة باللام باعتبارها المقدّمة، والأصل الذي يبنى عليه كلّ شيء، وجاءت "لن" في آية البقرة– وهي دون "اللام" من حيث المبالغة– للدلالة على أنّه مادامت ولايتهم لله منفيَّةً– وهي أصل الخير كلِّه، وما بعده تبع له ونتيجة عنه–، فلَأَنْ تُنفى سعادتهم في الآخرة من باب الأولى والأحرى. والله أعلى وأعلم.

...

الموضع الحادي عشر: في ذكر نبي الله إبراهيم عليه السلام.

قوله تعالى: «وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ» [البقرة: ١٢٥].

وقوله عزّ من قائل: «وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ» [الحج: ٢٦].

عبّر "بالقائمين" في الحجّ بدل "العاكفين" لأنّ ذكر العاكف هنا سبق في

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ» [الحج: ٢٥]، ومعنى القائمين: المصلّون، وقيل بمعنى المقيمين، وهم العاكفون، لكن لمّا تقدم ذكرهم عبّر عنهم بعبارة أخرى للتفنّن في الفصاحة والإعجاز.

أمّا آية البقرة فلم يسبقها ما يدل عليها، فجاءت على الأصل. والله أعلم[1].

...

الموضع الثاني عشر: في ذكر دعاء إبراهيم عليه السلام.

قوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آَمِنًا» [البقرة: ١٢٦].

وقوله تعالى:«وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا»[إبراهيم: ٣٥].

ولبيان سبب مجيء لفظ "بلدا" منكّرًا في البقرة، ومعرّفا "البلد" في إبراهيم، نقول:

إنّ دعوة إبراهيم عليه السلام وقعت، ولم يكن المكان قد جعل بلداً وإنّما كان بمثابة واد غير ذي زرع كما قال سبحانه: «رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ» [إبراهيم: ٣٧]، وكأنّه قال "اجعل هذا الوادي بلدا آمنا" بدليل أنّ الله تعالى أعقب ذلك بقوله: «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ» [البقرة: ١٢٧]؛ فالدعوة

---

(1) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 133. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 232، 233).

الأولى كانت قبل البناء، ولم يكن البلد الحرام معروفا بكونه بلدا، لذلك ناسبه التنكير في محلّ مفعول ثان، واسم الإشارة "هذا" مفعول أول.

على أنّ الدعوة الثانية الواردة معرّفة في سورة إبراهيم، وقعت بعد البناء، وقد جُعل الوادي بلدا، فعرّفه حيث عُرف بالبلدية واشتُهر بها. وعلى هذا يكون اسم الإشارة هو المفعول الأوّل، والبلد تابع له، و"آمِنًا" هو المفعول الثاني[1]. والله أعلم.

(1) لمزيد من التفصيل، يرجع إلى: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (1/ 272–274). البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 34. كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 105، 106. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 39. المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية لصالح الشثري، ص: 218، 219.

المبحث الثاني: بلاغة المتشابهات اللفظية في القصص القرآني الوارد في سورة آل عمران:

اقتصرت الآيات المتشابهة المتضمنة للقصة القرآنية في سورة آل عمران على ذكر أخبار عيسى بن مريم وأمه عليهما السلام. ولم يرد فيها غير هذا، وحاصل ذلك في ثلاثة مواضع.

الموضع الأول: في ذكر خبر مريم عليها السلام.

قوله تعالى: «قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» [آل عمران: ٤٧].

وقوله سبحانه: «قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا» [مريم: ٢٠].

فجاءت الأولى بلفظ "ولد"، والثانية بلفظ "غلام"، وهذا لأنّ الآية الأولى من آل عمران تقدّمها ذكر المسيح عليه السلام، وهو ولد مريم في قوله تعالى: «إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ» [آل عمران: ٤٥].

أمّا الآية الثانية من سورة مريم فقد تقدّمها ذكر الغلام، في قوله سبحانه: «قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا» [مريم: ١٩]، فجاء الحال بما يوافق كلّ مقام من المقال. والله أعلم[1].

---

(1) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 45. كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 128.

الموضع الثاني: في ذكر عيسى عليه السلام، وبعض معجزاته.

قوله تعالى: «فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ» [آل عمران: ٤٩].

وقوله سبحانه: «فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي» [المائدة: ١١٠].

فجاء الضمير– وهو هاء الغائب– عائدا على مذكّر في الآية الأولى، وعلى مؤنّث في الأخرى، وسرّ هذا التفنّن والتنوّع عائد بالأساس إلى مصدر الكلام، فالآية الأولى، المتكلّم فيها عيسى عليه السلام، وهو يقصد إلى ذكر ما تقوم به حجّته على قومه من بني إسرائيل، وذلك أوّل ما يصوّر الطين على هيئة الطير، ويكون واحدا تلزم به الحجّة، فكان التذكير أولى.

أمّا الآية الثانية فالمخاطِب فيها هو ربّ العزّة سبحانه؛ إذ يعدّد نعمه على عيسى عليه السلام، وما أصحبه إياه من المعجزات، وأظهر على يده من الآيات، وكان فاتحة ذلك من قوله تعالى: «إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ» [المائدة: ١١٠]. «والإشارة في هذه الآية ليست إلى أوّل ما يبديه لبني إسرائيل من ذلك محتجّا به عليهم، وإنّما هي إلى جميع ما أذن الله تعالى في كونه دلالة على صدقه، من قبيل الصور التي يصورها من الطين على هيئة الطير»[1]، ومجموع هذه الصور يصلح لها التأنيث في لغة العرب لا التذكير، كون هذا الفعل قد تكرّر عن عيسى عليه السلام مرات عدّة، فحسن التأنيث لجماعة ما صوّره من ذلك ونفخ فيه[2].

---

(1) درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (1/ 354– 356)، بتصرّف. ولمزيد بيان ينظر: المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية لصالح الشثري، ص: 200.

(2) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 54. كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 129. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس=

ولا يخفى على ذي لبّ أنّ ما جنحنا إليه كان من جهة المعنى، أمّا من جهة اللفظ فإنّه ورد قبل ضمير آية آل عمران من لدن قوله تعالى: "وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ" إلى قوله سبحانه: "فَأَنْفُخُ فِيهِ" نحو من عشرين ضميرا من ضمائر المذكّر، فورد الضمير في قوله "فأنفخ فيه" مذكّرا ليناسب ما تقدّمه، ويشاكله مراعاة للأكثر الوارد قبله.

«أمّا آية العقود فمفتتحة بقوله تعالى: "اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ"، وخلقه الطائر ونفخه فيه من أجلّ نعمه تعالى عليه لتأييده بذلك، فناسب ذلك تأنيث الضمير، ولم تكثر الضمائر هنا ككثرتها هناك، فجاء كلّ من الآيتين على أتمّ مناسبة»[1].

...

الموضع الثالث: في ذكر حوار عيسى عليه السلام مع قومه.

قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» [آل عمران: ٥١].

وقوله: «وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» [مريم: ٣٦].

وقوله سبحانه: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» [الزخرف: ٦٤].

الكلام على الآيات في أمرين:

=في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 89.

(1) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 303).

الأول: في ورود آية آل عمران بالفصل من دون واو في أولها، وورود آية مريم بالوصل بالواو، ذلك أنّ آية مريم تتميم لكلام عيسى عليه السلام السابق، حين قال: «وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا» [مريم: ٣٣]، وقد فصل بين السابق ومتمّمه بآيتين، وإذا كان الأمر كذلك، فلابدّ من إرادة الواو للدلالة على اتّصال الكلام بسابقه، وليس انفصاله عنه، واستقلاليته بمعناه، وقد ذكر هذا شيخ البلاغيّين عبد القاهر الجرجاني رحمه الله، وعدّه من المسائل الدقيقة في عطف الجمل، فقال: «هذا فنّ من القول خاصّ دقيق، اعلم أنّ ممّا يقلّ نظر الناس فيه من أمر العطف أنّه قد يؤتى بالجملة فلا تعطف على ما يليها، ولكن تعطف على جملة بينها وبين هذه التي تعطف، جملة أو جملتان، مثال ذلك قول المتنبّي:

تـولّوا بغـتة فكـأنّ بيـنا تهيّبني ففاجأنـي اغتيـالا.

فكان مسير عيسهم ذميلا وسير الدمع إثرهم انهمالا.

قوله: "فكان مسير عيسهم" معطوف على "تولّوا بغتة" دون ما يليه من قوله: "ففاجأني" لأنّا إن عطفناه على هذا الذي يليه أفسدنا المعنى، من حيث إنه يدخل في معنى "كأنّ" وذلك يؤدّي إلى أن لا يكون مسير عيسهم حقيقة، ويكون متوهّما، كما كان تهيّب البين كذلك.

وهذا أصل كبير، والسبب في ذلك أنّ الجملة المتوسّطة بين هذه المعطوفة أخيراً، وبين المعطوف عليها، الأولى ترتبط في معناها بتلك الأولى، كالذي ترى أنّ قوله: "فكأنّ بينا تهيّبني" مرتبط بقوله: "تولّوا بغتة"، وذلك أنّ الثانية مسبَّب والأولى سبب، ألا ترى أنّ المعنى "تولّوا بغتة فتوهّمْت أنّ بينا تهيّبني"؟ ولا شكّ أنّ التوهّم كان بسبب أن كان التولّي بغتة، وإذا كان كذلك، كانت مع الأولى كالشيء الواحد، وكان منزلتها منها منزلة المفعول

والظرف وسائر ما يجيء بعد تمام الجملة من معمولات الفعل، ممّا لا يمكن إفراده عن الجملة. وأن يعتدّ كلاما على حدته»[1]، ثمّ يختم قوله بخاتمة جامعة مستوفية لما تقدّم من كلامه فيقول: «فأمر العطف إذن موضوع على أنّك تعطف تارة جملة على حملة، وتعمد أخرى إلى جملتين أو جمل، فتعطف بعضا على بعض، ثمّ تعطف مجموع هذي على مجموع تلك»[2].

ونفس التعليق على ظاهرة الوصل في شِعر المتنبّي، ينطبق تماما على ظاهرة الوصل في آية مريم عليها السلام.

فإنّ عيسى عليه السلام لمّا تكلّم في المهد مُقرّا بعبوديته لله، إلى أن ختم ذلك بالسلام عليه، يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيّا؛ تمّ كلامه وانقضى، وشُرع في قضية أخرى من التعريف بحقيقة أمر عيسى عليه السلام، فقال تعالى: «ذَلِكَ عيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» [مريم: ٣٤ – ٣٥]، فورد هذا مورد الجمل التي كأنّها مفصولة عمّا قبلها مع الحاجة إليها، واتّصال ما بعدها بما قبلها، لهذا كان لزاما من ورود حرف النسق، ليحصل منه أنّه كلام غير منقطع بعضه عن بعض، ولا مستأنف، بل هو معطوف على ما تقدّمه من كلام عيسى عليه السلام، وليحصل الاتّصال والالتحام في الكلام، وليتبيّن أنّه تابع لكلام عيسى عليه السلام. فقال سبحانه: «وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ» معطوفا على قوله: «وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا» [مريم: ٣٣].

---

(1) دلائل الإعجاز في علم المعاني لعبد القاهر الجرجاني، ص: 255.

(2) المصدر نفسه، ص: 256.

أما آية آل عمران، فلم يرد فيها فصل بين الآية وما قبلها يوهِم انقطاعا، فيحتاج إلى الواو، بل جاء فيها كمال الاتّصال، فلم يكن لورود الواو معنى، بل كان حذفها أولى[1].

الثاني: حذف لفظ الضمير المنفصل (هو) من آل عمران ومريم، وذكره في الزخرف؛ ذلك أنّ آية الزخرف تقدّمها «ذكر آلهتهم، وقولهم: «أَآَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ» [الزخرف: ٥٨]، يعنون المسيح، ناسبه ما أعقب به من قوله تعالى، حاكيا عن المسيح عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ» [الزخرف: ٦٤]، فكأن قد قيل: هؤلاء غيره، فأحرز "هو" هذا المعنى، ولم يرد في آية آل عمران، وآية مريم من ذكر آلهتهم ما ورد هنا، فلم يُحتج إلى الضمير المحرز لما ذكرنا»[2].

وهذا التوجيه من ابن الزبير رحمه الله هو المعوّل عليه، كون آية الزخرف سبقها ذكر للآلهة المعبودة من دون الله، بغير حقّ، فجاء الضمير المنفصل ليؤكّد إثبات الألوهية الحقّة لله وحده، ونفيها ضمنيّا عن غيره من المعبودات الباطلة، التي لا تحرّك ساكنا ولا تجيب داعيا، كما لا تجلب نفعا ولا تدفع ضرّاً.

أمّا من زعم أنّ حذف التوكيد في آيتي آل عمران ومريم، مردّه الذكر

---

(1) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 307، 308). وللمزيد ينظر: المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية لصالح الشثري، ص: 446. وما بعدها.

(2) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 309).

المستفيض المتقدّم لعيسى عليه السلام، دون ما جاء في الزخرف[1]، فقد أبعد النجعة، كون آية الزخرف تقدّمها ذكر لعيسى عليه السلام، وذلك في قوله تعالى: «وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وَقَالُوا أَآَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ» [الزخرف: ٥٧ – ٦٠]، وقوله تعالى: «وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ» [الزخرف: ٦٣].

وإذا أنعمنا النظر في الآيات من هذا القبيل، على غرار ما ورد في سورة النجم، في قوله تعالى: «وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا» [النجم: ٤٣ – ٤٤]، وقوله «وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى» [النجم: ٤٨ – ٤٩]، ألفينا أنّ كلّ موضع فيه نسبة لشيء من متعلّقات الربوبية أو الألوهية لغير الله سبحانه وتعالى، شفّع بضمير الفصل، لتأكيد نسبة ذلك لله وحده. وكلّ موضع لم يدّع فيه ذلك، جاء بحذف ضمير الفصل، لعدم الحاجة إليه، والله أعلم.

...

(1) ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (1/ 362، وما بعدها). البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 46، 47. كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 129. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 90.

المبحث الثالث: بلاغة المتشابهات اللفظية في القصص القرآني الوارد في سورتي المائدة والأنعام:

1 سورة المائدة:

ورد في سورة المائدة موضع واحد فيه ذكر لخبر موسى عليه السلام مع قومه، وهو:

قوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ» [المائدة: ٢٠].

وقوله سبحانه: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ» [إبراهيم: ٦].

فجاءت آية المائدة بذكر جملة المنادى، وحرف النداء "ياقوم"، وآية إبراهيم بحذفهما. ذلك أنّ الخطاب بحرف النداء، واسم المنادى– كما يرى الإسكافي، ومن وافقه[1]– أبلغ وأخصّ في التنبيه على المقصود، وفيه دليل على الاعتناء بالمنادى، وتخصيصه بما يريد أن يقول له.

«فلمّا كانت آية المائدة في ذكر أشرف العطايا؛ من النبوّة والملك، وإيتاء ما لم يؤت أحداً من العالمين، وهو المنّ والسلوى، وهم ملتبسون به

---

(1) ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (1/ 430– 433). البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 58. كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 149. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 137.

حالة النداء... ناسب مزيد الاعتناء بالنداء، وتخصيص المنادى»[1].

ثمّ إنّ آية المائدة جاءت موافقة لما قبلها، وما بعدها، من ذكر المنادى وحرف النداء، وذلك في قوله تعالى: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ» [المائدة: ١٥]، وقوله تعالى: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [المائدة: ١٩]، وقوله: «يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ» [المائدة: ٢١]، وقوله: «قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ» [المائدة: ٢٢ – ٢٤].

أمّا آية إبراهيم، فإنّها اقتصرت على تذكيرهم بمجرّد الإنجاء من آل فرعون، ولم تشتمل على ما اشتملت عليه آية المائدة؛ ممّا شرّفهم الله تعالى، بما منحهم من أعظم النعم والعطايا، ولم يرد في سياقها ما ورد في المائدة، من موافقة ما قبلها وما بعدها، فلذلك خلت من ذكر حرف النداء والمنادى، واقتصرت على الخطاب بقوله "اذكروا".

هذا وقد مال ابن الزبير إلى رأي الخطيب في الموافقة المعنويّة، واقتصر

---

(1) كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 149.

عليها، دون المناسبة اللفظيّة[1].

2 سورة الأنعام:

سيق في هذه السورة موضعان تشابهت آياتهما مع مواضع أخرى في كتاب الله تضمنت سردا لقصص قرآنية وأخبار ماضية، وهي:

الموضع الأول:

قوله تعالى: «قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ» [الأنعام: ٥٠].

وقوله تعالى: «وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ» [هود: ٣١].

زيدت "لكم" في آية الأنعام، وحذفت من آية هود. وهذا لأنّ آية هود تقدّمها "لكم" مرّات عدّة، وذلك في قوله: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ» [هود: ٢٥]، وقوله: «وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ» [هود: ٢٧]، وبعدها: "أَنْ أَنْصَحَ"، فلمّا تكرّر "لكم" في القصّة أربع مرّات، اكتفى بذلك، ولم يُذكَرْ ها هنا تخفيفا، ولم يتقدّم في الأنعام سوى مرّة واحدة، فحسن ذكره هناك.

وهذا المعنى يكاد يجمع عليه الباحثون في بيان أسرار المتشابه اللفظ في القرآن الكريم[2]؛ إلّا ما كان من ابن الزبير الذي أورد توجيها آخر يراه

---

(1) للاطّلاع، يرجى الرجوع إلى: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 358).

(2) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 64. كشف=

مناسبا لمعنى الآيتين[1].

...

الموضع الثاني:

قوله تعالى: «قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» [الأنعام: ١٣٥].

وقوله سبحانه: «وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ» [هود: ٩٣].

وقوله تعالى: «قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» [الزمر: ٣٩].

ورد ذكر الفاء في آيتي الأنعام والزمر، وحذف في آية هود.

وهذه الآيات ما كانت لتحظى بالدراسة والتحليل لولا آية سورة هود التي وردت في معرض خطاب نبي الله شعيب عليه السلام لقومه، وهي من قبيل القصص الذي نحن بصدد دراسته وكشف أسرار ألفاظه ومعانيه.

ولئن كانت آيتا الأنعام والزمر خطابا من الله تعالى للنبيّ صلى الله عليه وسلم بدليل تصدرها بلفظة " قل"؛ إلاّ أنّ ما ورد في القرآن الكريم من خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم أو سرد لأحداث وقعت بينه عليه الصلاة والسلام وبين أزواجه أو صحابته رضي الله عنهم أو مختلف القبائل العربية

=المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 161، 162. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 168.

(1) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 456، 457).

التي عاصرته لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن يصنّف ضمن القصص القرآنيّ الذي سيق للعظة والاعتبار فحسب! بل هو دين يُتَّبَعُ، وشرع يُنَفَّذ، ومثل يُقتدَى، وسيرة تُحتذَى، وسبيلٌ يُنتهَج.

وقد تباينت آراء العلماء في توجيه هذه الآيات، وانقسمت فريقين:

فالفريق الأوّل، وعلى رأسهم الخطيب الإسكافي رحمه الله، يرى أنّ: «"الفاء" في سورة الأنعام متعلّقة بقوله تعالى "اعملوا"، والتقدير: اعملوا فسوف تعلمون، إنّي عامل فسوف أعلم، فحذف للعلم به، وكذلك ما في سورة الزمر، خطاب من الله تعالى لنبيّه صلّى الله عليه وسلّم على هذا الوجه.

أمّا في سورة هود فإنّه حكاية عن شعيب عليه السلام، لمّا تجاهل قومه عليه، فقالوا له: «قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ» [هود: ٩١]، فقال لهم: "اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ"، وتعرفون عملي، وإن قلتم إنّا لا نفقه أكثر ممّا تقوله، فجعل "سوف تعلمون" مكان الوصف لقوله "عامل" فلم يصحّ على هذا المعنى دخول الفاء، وقصد هذا المعنى لما أظهروا من جهلهم به، وأنّهم لا يعرفون كثيرا ممّا يقوله لهم، فقال لهم: "إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ" عملي وتعرفونه بعدما أنكرتموه»[1].

---

(1) درّة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، (1/ 522، 523). وقد وافقه كلّ من الكرماني وابن الزبير وابن جماعة، وأبو يحيى الأنصاري، ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 68. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 477). كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 167. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 177.

وحاصل تعليل الاسكافي، ومن وافقه أنّ آيتي الأنعام والزمر خطاب مباشر، وأمر للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم بدليل قوله سبحانه: "قل"، أمّا آية هود فهي حكاية لقصّة، وإخبار للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن قوم غابرين، هم شعيب عليه السلام وقومه، وما جرى بينه وبينهم.

ومعلوم أنّ الحكاية ليس فيها من قوّة العبارة، والدعوة إلى الانتباه، واسترعاء السمع، ما في الأمر والخطاب المباشرين، ولِضعف تقدير الشرط فيها حذفت الفاء، بينما في الأمر على العكس من ذلك تماما؛ فقد قوي معنى الشرط المنجرّ تقديره في الأوامر، ما استدعى ذكر الفاء في الجواب المبني على الشرط المقدّر، والله أعلم.

أمّا الفريق الثاني، وحامل رايتهم في هذا التوجيه الإمام الزمخشري رحمه الله، بعد أن طرح إشكالا كعادته في مراعاة أحوال المخاطَبين، إذ يقول: «فإن قلت: أيّ فرق بين إدخال الفاء ونزعها في "سوف تعلمون"؟، قلت: إدخال الفاء: وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل، ونزعها: وصل خفيّ تقديريّ بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدّر؛ كأنّهم قالوا: فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا، وعملت أنت؟. فقال سوف تعلمون، فوصل تارة بالفاء، وتارة بالاستئناف، للتفنّن في البلاغة، كما هو عادة بلغاء العرب، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف، وهو باب من أبواب علم البيان، تتكاثر محاسنه»[1].

---

(1) تفسير الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لمحمود بن عمر الزمخشري، (2/ 408). وقد وافقه على هذا الرأي ابن الجوزي، والفخر الرازي، وأبو حيان، والألوسي، وابن عاشور، ينظر: زاد المسير في علم التفسير للإمام أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، =

على أنّ لصاحب التحرير والتنوير، لطيفة ساقها في معرض تعليقه على آية هود، بعد ذكره لرأي الإمام الزمخشري، وموافقته له. وهي أنّ «في خطاب شعيب عليه السلام قومه من الشدّة ما ليس في الخطاب المأمور به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، في سورة الأنعام جريا على ما أرسل الله به رسوله محمداً صلّى الله عليه وسلّم من اللين لهم: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ» [آل عمران: ١٥٩]، وكذلك التفاوت بين معمولي "تعلمون" فهو هنا غليظ شديد: "مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ"، وهو هناك في سورة الأنعام لين: "مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ"»[1]

والذي تركن إليه روحي أنّه أسلوب من أساليب القرآن الكريم البليغة والمعجزة في آن؛ تعجز بني البشر عن الإتيان بمثله كما تعجزهم عن إدراك علله، ومحاولة إخضاعه لضوابط وقواعد تُوهم باطّراده.

...

=لبنان، ط1، 1414/ 1994، (4/ 118). التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب للإمام الرازي، (18/ 42). تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، (5/ 257). روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لمحمود الألوسي، (12/ 190). تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور التونسي، (12/ 152).

(1) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور التونسي، (12/ 152، 153).

المبحث الرابع: بلاغة المتشابهات اللفظية في القصص القرآني الوارد في سورة الأعراف:

كثرت الآيات المتشابهة التي سيقت في معرض ذكر قصص الأمم الغابرة، والتي جاءت في بضعة عشر موضعا، تناولت أخبار أنبياء الله: نوح، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى عليهم السلام جميعا، وسنشير إلى كل نبي في الموضع الذي ساق خبره.

الموضع الأول: في خبر نوح عليه السلام.

قوله تعالى: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ» [الأعراف: ٥٩].

وقوله تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ» [1].

فافتتحت قصّة نوح بالفصل على الاستئناف في الأعراف، وبالوصل في هود والمؤمنون؛ لأنّ ما في الأعراف كلام مستأنَف لم يتقدّمه ذكر نبيّ، أو دعوة نبوة، أو ما يوحي إلى ذلك، فسيقت من دون واو.

أمّا ما في هود فقد تقدّمه ذكر الأنبياء مرّة بعد أخرى، كما تقدّمها ذكر رسالة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ومن أوجه التشابه بين قصّة نوح، والقصّة التي تتضمّن الحديث عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، دعوة كلّ منهما قومَه إلى عقيدة التوحيد، وإلى عبادة الله الواحد الأحد، قال تعالى في أوّل السورة عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ» [هود: ٢]، وقال تعالى عن نوح عليه السلام: «أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ» [هود: ٢٦]، أضف إلى ذلك أنّ كلاّ منهما نذيرٌ لقومه، قال تعالى في بداية السورة عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ» [هود: ٢]، ثمّ

---

(1) [هود: 25]، [المؤمنون: 23].

قال عن نوح عليه السلام: «إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ» [هود: ٢٥].

وزيادة على هذين أنّ كلّا منهما أنذر قومَه عذابَ يومٍ عظيم، قال تعالى حكايةً عن محمّد صلّى الله عليه وسلّم: «وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ» [هود: ٣]، وقال تعالى حكايةً عن نوح عليه السلام: «إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ» [هود: ٢٦].

فلمّا تشابهت القصّتان اقتضى ذلك عطفُ الثانية على الأولى.

أمّا ما في المؤمنون، فقد تقدّمه قوله تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ» [المؤمنون: ١٢]، وقوله تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ» [المؤمنون: ١٧]، وقوله تعالى: «وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ» [المؤمنون: ٢٢]، فجاءت الآيات كلّها معطوفةً وموصولة بالواو، فناسب ذلك ذكرُ ما بعدها بالواو أيضا، وهو قوله: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ» [المؤمنون: ٢٣]، ثمّ إنّه سبقها ذكرُ الفلك، وهو ممّا اتّخذه نوح عليه السلام، وكان سببَ نجاته من الطوفان الذي عمّ قومَه. فناسب عطف الآية عليه.

وهذا التوجيه الذي أفضنا في كشف معالمه، وفتح مغالقه، وبسط مجامعه، وشرح معانيه، هو رأي الخطيب الإسكافي في الآيات، ووافقه على ذلك غيرَه دون مخالف[1].

---

(1) ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 562– 566). البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 75. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 511– 513). كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 177، 178. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 195. المتشابه اللفظي =

...

الموضع الثاني: في خبر نوح وهود عليهما السلام.

قوله تعالى:«قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ»[الأعراف: ٦٠].

وقوله سبحانه: «قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ» [الأعراف: ٦٦].

إنّ إضافة وصف الكفر في قوم هود عليه السلام، وحذفه من قوم نوح، يعود إلى سياق الآيتين.

فلمّا كان في دعاء نوح: "إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ"، ما يشير إلى الكفر، ويدلّ عليه، اقتضى الإيجاز والاكتفاء بذلك، ولمّا لم يرد في دعاء هود: "أَفَلَا تَتَّقُونَ" ما يبيّن كفرهم– فقد يؤمر المؤمن بالتقوى– اقتضى ذلك الذكر والإثبات[1].

وهذا التوجيه من ابن الزبير هو المعوّل عليه عندي.

على أنّه وردت آراء أخرى، ومجادلات وردود بين أهل العلم في هاتين الآيتين، نكتفي بالإحالة عليها تجنبا للإطالة[2].

=في القرآن الكريم وأسراره البلاغية لصالح الشثري، ص: 450، 451.

(1) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 529).

(2) ينظر: تفسير الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لمحمود بن عمر الزمخشري، (2/ 112). التفسير الكبير للإمام الرازي، (14/ 126). كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 178، 179. تفسير البحر المحيط لأبي حيّان الأندلسي، (4/ 327). فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 196. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لمحمود الألوسي، (8/ 230). تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور التونسي، ج8، ق2، ص: 202.

...

الموضع الثالث: في خبر نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام.

قوله تعالى في قصّتي: نوح: «أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» وهود: «أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ». [الأعراف: ٦٢، ٦٨].

وقوله تعالى في قصّتي: صالح: «لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ» ، وشعيب: «لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ» [الأعراف: ٧٩، ٩٣].

ورد في هذه الآيات المتشابهة ثلاثة اختلافات في ألفاظها، وهي اختلافات نحوية صرفية، تحمل في طياتها معاني بلاغية وأسراراً إعجازية جمّة، فإليك بيانها مفصّلة:

الأوّل: اختصّت قصّتا نوح وهود عليهما السلام بلفظ المستقبل "أبلغكم"، وذلك لأنّ الإبلاغ كان في بداية[1] بعثتهما عليهما السلام، فجيء بالمضارع الدّال على التكرّر والتجدّد والاستمرار، كناية على أنّهما سيواصلان إبلاغ ما أرسلوا به من عند الله حتّى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

أمّا قصّتا صالح وشعيب فاختصّتا بلفظ الماضي "لقد أبلغتكم"، وذلك لأنّ كلامهما عليهما السلام كان في آخر دعوتهما، بعد أن حُقّ العذاب على قوميهما، ولهذا افتتحت الآيتان بقوله تعالى "فَتَوَلَّى عَنْهُمْ"، فدلّ على أنّ الإبلاغ كان في الماضي وانتهى، بعد أن حقّت عليهم كلمة الله، وحلّ

---

(1) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 76. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 197.

بدارهم غضب الله وسخطه.

الثاني: إنّ الوجه البلاغيّ في جمع لفظ "الرسالة" في جميع القصص، وإفرادها فقط في قصّة صالح؛ هو أنّ القصص الأخرى كان من أنبيائها أن أمروا أقوامهم بأشياء كثيرة، بعد دعوتهم إلى الإيمان بالله وتوحيده[1]؛ فكان من نوح عليه السلام أن مكث في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاما، يدعوهم إلى الإيمان، وتوحيد الله، وصرف كلّ أنواع العبادة له دونما سواه، وردّ كلّ الشّبه والأباطيل، التي يتحجّج بها قومه، ويتّخذونها ذرائع للإنكار والجحود والعناد، حتّى ضاق بهم ذرعاً، وأيِس من اهتدائهم، فلجأ إلى ربه يدعو عليهم: «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا» [نوح: ٢٦]، ومثل هذا كان من هود عليه السلام، وكان من شعيب عليه السلام أيضاً أن دعاهم بعد الإيمان بالله وتوحيده، إلى إيفاء الكيل والميزان، وأن لا يبخسوا الناس أشيائهم، كما نهاهم عن الإفساد في الأرض، والصدّ عن سبيل الله، ومحاربة دينه وأوليّائه، وأعقب ذلك بتذكيرهم بنعم الله عليهم، ومِنَحِهِ العظيمة، وآلائه الجسيمة؛ لذلك ناسب هذه القصّة وما سبقها، أن يُجمع لفظ الرّسالة بما يتوافق مع ما بذله رسل الله، عليهم وعلى رسولنا الكريم، صلوات الله وسلامه، من النصح لأقوامهم، والسعي في إصلاحهم، وهدايتهم وفلاحهم.

ولئن كان نبيّ الله صالح عليه السلام، لم يدّخر جهدا في هدايته قومَه؛

---

(1) ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 591). البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 76. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 536). كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 180. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 198.

شأنه في ذلك شأن إخوته من الأنبياء عليهم السلام، إلاّ أنّ الله عزّ وجلّ أيّده بآية ظاهرة، ومعجزة باهرة، وهي النّاقة؛ فكأنّها أذهلت الخلق عمّا عداها من الآيات، فناسب ذلك إفراد لفظ الرسالة تعظيما لها، ولفتاً للانتباه إليها. والله أعلم.

الثالث: وقوع الاختلاف في اللفظ الدال على النصيحة، فالآية الأولى في قصّة نوح عليه السلام، جاءت بالفعل "أنصح"؛ في حين جاءت الثانية في قصّة هود عليه السلام بالاسم "ناصح".

وإذا أنعمنا النظر في السياق الذي وردت فيه كلّ آية على حدة، فإنّ كلام نوح عليه السلام جاء ردًّا على ما اتهمه به قومه من الضلال حينما قالوا: «إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» [الأعراف: ٦٠]، ومعلوم عند كلّ ذي لبٍّ أنّ صفة الضلال هي من صفات الفعل التي تتجدّد وتتكرّر بترك الصواب إلى ضدّه ،كما يمكن التخلي عنها في الحال إلى الاستقامة والرشاد، فردّ نوح عليه السلام على ما وُصِف به من الفعل المذموم بفعل محمود وزيادة حينما قال: "وأنصح " للدلالة على أنّه مستمر في نصحهم وإبلاغهم.

أمّا هود عليه السلام فقد رُمِيَ من قبل قومه بالسفاهة، حينما قالوا «إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ» [الأعراف: ٦٦]. والسفاهة من صفات النّفس المذمومة الثابتة، وليست من الأفعال التي ينتقل الإنسان عنها إلى أضدادها في الزمن القصير مرارًا كثيرة، فكان الأوْلى لهود عليه السلام أن يردّ عليهم بصفة ثابتة فيه تفنّد زعمهم وتدحض باطِلَهم فقال «وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ» [الأعراف: ٦٨]، ليعلمهم أنّه مجبول على نصحهم وحبّ الخير لهم، ومفطور على ذلك، وأنّ خُلُق النصح لقومه سجيّة فيه لا تزول بتعاقب الأزمان والحوادث، فأبطل عليه السلام قولهم: "إنّه سفيه كاذب"،

بقوله: "نَاصِحٌ أَمِينٌ"[1].

وقد علّق الكرماني على هاتين الآيتين، فقال: «لأنّ ما في هذه الآية "أُبَلِّغُكُمْ" بلفظ المستقبل فعطف عليه "وَأَنْصَحُ لَكُمْ" كما في الآية الأخرى: «لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ» [الأعراف: ٧٩]، فعطف الماضي، لكن في قصة هود قابل باسم الفاعل على قولهم له: «وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ»، ليقابل الاسم بالاسم»[2].

قلت: وهذا توجيه بعيد باعتبار أن آية قصّة هود قد سبقت بفعل أيضًا "أبلغكم"، وهو أقرب إلى اللفظ "ناصح" من اسم الفاعل "الكاذبين". فأن يعطف على الأقرب منه في التركيب أوْلى من البعيد والله أعلم.

وها هنا نكتة لطيفة ومسلك دقيق باعتبار خاتمة كلّ قصّة؛ إذ إنّ نوحا عليه السلام لَمّا دعا قومه دهرًا من الزمن، فأبوا إلّا كفورًا: «وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا

---

(1) ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 604– 606). ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 526– 528). كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 179. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب للإمام الرازي، (14/ 127). نظم الدّرر في تناسب الآي والسور لبرهان الدين البقاعي، تخ: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415/ 1995، (3/ 49– 52). تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور التونسي، (8/ 2/ 203). تفسير الشعراوي، قطاع الثقافة، (د، م، ر، ت، ط)، (7/ 4210). ولمزيد بيان ينظر: المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية لصالح الشثري، ص: 132، 117 وما بعدها، 162 وما بعدها.

(2) البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 86. وقد وافقه على هذا أبو يحيى الأنصاري، وأبو حيان الأندلسي، ينظر: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 196، 197. تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، (4/ 327).

قَلِيلٌ» ؛ قال له ربّه سبحانه: «لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آَمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» [هود: ٣٦]، آلمه ذلك كثيرا، فانقلب يدعو عليهم بعدما كان عليه السلام يسدي النصيحة لهم؛ قال تعالى على لسان نوح: «وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا» [نوح: ٢٤]، «وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا» [نوح: ٢٦ – ٢٧]، فدلّ ذلك على أنّ نصحه عليه السلام لهم كان متعلّقا بزمن معيّن فلمّا قامت الحجة عليهم بعنادهم واستكبارهم وجحودهم وغيّهم، كان نتيجةَ ذلك الدعاء عليهم ثم هلاكهم.

أمّا هود عليه السلام فإنّه لمَّا استحق قومه العذاب لم يكن منه سوى أن عذر نفسه فقال: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ» [هود: ٥٧]، وبيّن لهم أنّه كان ناصحًا ومبلّغا أمينا إلى آخر عهده بهم.

فمن وعى هذا، اتّضح له الفرق بين إيراد الفعل "أنصح" والاسم "ناصح"[1]

...

الموضع الرابع: في خبر نوح عليه السلام ومن معه.

قال تعالى: «فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ» [الأعراف: ٦٤].

---

(1) هذا مِمّا فتَحَه الله علَيّ، ولم أعثر على من تفطّن لهذا سواء من المتقدّمين أو من المتأخّرين، فللّه الحمد والمنّة. وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على كون القرآن معجزةً خالدة لا تنقضي عبره، ولا تفنى عجائبه، ولا يخلق على كثرة الردّ. ولا زال المتأخّر يُنعِم نظره في كتاب الله تعالى، ويغوص بفكره في معانيه الباهرة، فيستخرج من درره الكامنة ما فات المتقدّم، وعجز عن الظفر به؛ فسبحانك ربّي ما أعظم كلامك!!.

وقال سبحانه: «فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ» [يونس: ٧٣].

جاء التعبير في الآية الأولى بالاسم الموصول "الذين" مع الفعل "أنجينا" وفي الثانية بالاسم الموصول "من" مع الفعل "نجّينا" بالتشديد.

وسبب الاختلاف في إيراد الاسمين الموصولين يرجع إلى علاقة معنى الاسم الموصول بمعنى الفعل قبله؛ ذلك أنّ الفعلين "أنجى" و"نجّى"، كلاهما للتعدية، إلّا أنّ نجَّى بالتشديد يدلّ على الكثرة والمبالغة دون قرينه أنجى[1]، فورد بعده الاسم الموصول "من" الذي يقع على الكثرة فيصلح للواحد والتثنية والجمع والمذكّر والمؤنّث، بخلاف "الذين" فإنّها تختصّ بالجمع المذكّر فحسب، وهذا المعنى يردّنا قليلا إلى الوراء في آية النحل في قوله تعالى: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ» [النحل: ٩٧]، فمع وُرود اللفظ مفردا، إلّا أنّه عامّ في كلِّ مؤمنٍ عمِل صالحا ذكرا كان أو أنثى، فيحصل بهذا أنّ مجموع الصالحينَ ذكورَهم وإناثَهم يُأجرون بما وعدهم الله في الآية، فإذا تبيّن هذا زال الإبهام، وانكشف اللثام، وحصل الإقناع، بمناسبة كلٍّ مِنْ: "من" و"الذي" لمقامهما في هاتين الآيتين والله أعلم[2].

...

الموضع الخامس: في صالح عليه السلام.

قوله تعالى: «وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا» [الأعراف: ٧٤].

وقوله سبحانه: «وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ» [الشعراء: ١٤٩].

---

(1) ينظر: ص: 36– 38، من هذه الرسالة.

(2) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 77.

زيدت "من" في الشعراء، وحذفت في الأعراف، وتوجيه الآيتين انفرد به الكرماني دون غيره؛ إذ يذكر أنّ "من" حذفت من آية الأعراف اكتفاءً بالتي قبلها في قوله تعالى: "تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا"، وتجنُّبًا للتكرار، أمّا التي في الشعراء فوحدها دون منازع[1].

...

الموضع السادس: في خبر لوط عليه السلام وقومه.

قوله تعالى: «وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ» [الأعراف: ٨٢].

وقوله سبحانه: «فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آَلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ» [النمل: ٥٦].

وقوله جلّ شأنه: «فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» [العنكبوت: ٢٩].

آية الأعراف جاءت معطوفة بالواو، في حين جاءت آيتا النمل والعنكبوت معطوفتين بالفاء، ذلك أنّ ما جاء في النمل يعتبر ردّا على إنكار لوط عليه السلام على قومه، وتشنيع فعلهم وتجريمهم به وتجهيلهم، فكان ردّهم بالفاء للدلالة على أنّ ما قبله سببا في إيراده، فبينهما علاقة سببيّة وتلك هي دلالة الفاء المعنويّة، والكلام ذاته ينصرف إلى آية العنكبوت.

أمّا آية الأعراف، وإن كانت ردّا من قوم لوط عليه السلام عليه، إلّا أنّه جاء قبلها قوله تعالى "بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ" بالاسم "مسرفون" دون الفعل

---

(1) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 78. المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية لصالح الشري، ص: 309.

كما في يونس "تجهلون" والعنكبوت "تأتون"، "تقطعون"، ذلك أنّ دلالة الفاء أصيلة في الأفعال دون الأسماء، فالفعل هو الأصل الذي وضعت الفاء فيه لتوجب ما بعدها لوجود ما قبلها، ولمّا كان الاسم ليس أصلا فيما جعلت الفاء للجواب فيه، وهو الوارد في آية الأعراف، عدل عنها إلى الواو، لمناسبتها للاسم، فأسفر الحسن عن وجهه في الموضعين[1] ولله الحمد.

...

الموضع السابع: في خبر شعيب عليه السلام.

قوله تعالى: «فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ» [الأعراف: ٩١].

وقوله تعالى: «وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ» [هود: ٦٧].

وقوله سبحانه: «وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ» [هود: ٩٤].

وقوله جلّ شأنه: «فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ» [العنكبوت: ٣٧].

الاختلاف في هذه الآيات جاء في موضعين:

الأول: اختلف الفعلان في اتّصال علامة التأنيث بأحدهما، وسقوطها من الآخر، مع أنّ الفاعل في الموضعين شيء واحد وهو "الصيحة"؛

---

(1) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 601، 602). البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 79. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 553، 554). فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 200.

والحاجز بين الفعل والفاعل في المكانين حاجز واحد أيضا، وهو "الذين ظلموا".

ولعلّ التوجيه الصائب في سرّ هذا الاختلاف أن يقال: إنّ ما جاء في الآية الأولى حُمِلَ على معنى الصيحة وهو الصياح[1]، فذكّر الفعل لأنّ الصيحة مصدر أريد به معناه وهو الصياح[2]، كما أنّ من معانيها أيضا العذاب والخزي بدليل ما سبقها وهو قوله تعالى: «وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ» [هود: ٦٦]. فقوي التذكير[3].

ثمّ إنّه وقع بين الفعل والفاعل حاجز، وهو "الَّذِينَ ظَلَمُوا" وهو كثير، وكلّما كثر الفصل كان حذف علامة التأنيث أحسن[4].

وقد ورد في القرآن من هذا الكثير كقوله سبحانه: «فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ» [البقرة: ٢٧٥]، وقوله جلّ شأنه: «فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ» [الأعراف: ٣٠].

أمّا ما جاء في الآية الثانية في سياق ذكر قصّة شعيب، فإنّ الله تعالى

---

(1) لسان العرب لابن منظور، (3/ 498).

(2) ينظر: لسان العرب لابن منظور، (3/ 498). الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط5، 1417/ 1996، (9/ 62).

(3) ينظر: نتائج الفكر في النحو لأبي القاسم السهيلي، ص: 131، 132. بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية، تح: هشام عبد العزيز عطا وآخرين، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط1، 1416/ 1996، (1/ 133). البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي، (3/ 368).

(4) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (2/ 661).

أخبر عن العذاب الذي أهلك به قوم شعيب عليه السلام بثلاثة ألفاظ، هي: "الرجفة" في سورة الأعراف، في قوله تعالى: «فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ» [الأعراف: ٧٨]، وفي قوله تعالى: «وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ» [الأعراف: ٩٠ – ٩٢]، و"الصيحة" في سورة هود، في قوله تعالى: «وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ» [هود: ٩٤]، و"الظلّة" في سورة الشعراء، في قوله تعالى: «فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ» [الشعراء: ١٨٩].

وفي التفسير أنّه اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم الثلاث كلّها[1] فجاءتهم الرجفة فانزعجوا لها فخرجوا من بيوتهم خوفا من سقوطها عليهم[2]، حتى إذا أصحروا ونال منهم حرّ الشمس الذي كاد يهلكهم بدت لهم ظُلّة؛ وهي سحابة فيها ريح طيّبة فوجدوا برد الريح وطيبها فتنادوا "الظلّة، عليكم بها"! فلمّا اجتمعوا تحت السحابة رجالهم ونساؤهم وصبيانهم، انطبقت عليهم فأهلكتهم[3]، أو جاءتهم الصيحة فهمدوا لها أي ماتوا[4].

فلمّا اجتمعت ثلاثة أشياء مؤنّثة الألفاظ في العبارة عن العذاب الذي

---

(1) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير، (2/ 602).

(2) ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي، (3/ 368).

(3) ينظر: تفسير الطبري، (6/ 5).

(4) ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 726).

أهلكوا به، غلب التأنيث في هذا المكان على المكان الأوّل الذي لم يرد فيه شيء من هذا، فألحقت تاء التأنيث بالفعل "وأخذت" في هذا الموضع مناسبة للمقام، وجرّد الفعل منها "وأخذ" الوارد مذكرا في الموضع الأوّل للعلّة ذاتها والله أعلم[1].

الثاني: جاء التعبير عن الدّار مفردة في موضعين من سورة الأعراف، وموضع في سورة العنكبوت، بينما جمعت على ديار في موضعين من سورة هود.

وهذا لأنّ ما ورد بصيغة الجمع معناه ينصرف إلى المساكن والبيوت، وما سيق بصيغة المفرد، فمعناه ينصرف إلى المدينة، أو البلد أو القرية الظالم أهلها[2].

ومن لطائف التفنّن في التعبير القرآني في هذه الآيات الكريمة، أنّ ما جاء على صيغة المفرد يتضمّن معنى القهر والقوّة والأخذ بشدّة، وكأنّ هذه القرى الظالمة، ببيوتها ومساكنها ودورها، وساكنيها وقاطنيها، وما ينتفعون به من الأنعام والبهائم وغيرها، تؤخذ أخذ عزيز مقتدر، وتهلك عن بكرة أبيها، كما يؤخذ الواحد من الناس، وهذا ممّا يدلّ على قهر الله تعالى وبطشه وقدرته على خلقه، التي لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء .

أمّا ما جاء على صيغة الجمع، فإنّه يتضمّن معنى تشتّت القوم، وتفرّق

---

(1) ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 726). البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 99.

(2) ينظر: تفسير الماوردي، (النكت والعيون)، تعليق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د، ر، ت، ط)، (2/ 236).

جمعهم، كما وصفهم الله تعالى: «تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى» [الحشر: ١٤]. فعلى الرغم من كونهم يسكنون قرية واحدة، وبلدة واحدة، إلاّ أنّ كلّ واحد منهم يسعى لمصلحته ودنياه، دون سواه، خلافا لما عليه المؤمنون، من الألفة والمحبّة والمودّة والرحمة، وكأنهم جسد واحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى، يتألّمون جميعُهم لآلام واحد منهم، ويسعدون لسعادته، وإن نأت بهم الأقطار، وبعدت بهم الأمصار.

كما يفيد معنى العموم والشمول؛ ودلالته أنّ عذاب الله تبارك وتعالى قد شملهم جميعا، ولم يتخلّف منهم أحد؛ فتوكيدا لهذا المعنى أوثر الجمع على الإفراد، والله أعلم.

على أنّ ما ورد بصيغة المفرد اقترن بلفظ الرجفة، وما كان بصيغة الجمع اقترن بلفظ الصيحة؛ ذلك أنّ الرجفة تعني الزّلزلة والاضطراب الشّديد، من غير أن يصحبها صوت، والصيحة تكون مع رفعٍ للصّوت، ودعاءٍ بالويل والثّبور، والحسرة والنّدم، فهي أشدّ وأبلغ وأفضع من الرّجفة، فناسبها الجمع، لما فيها من الشدّة، فيما كان الإفراد مع الرّجفة أليق وأجدر[1].

...

الموضع الثامن: في ذكر أخبار الأمم السابقة.

(1) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 77. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 533). كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 179. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 197.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ» [الأعراف: ١٠١].

وقوله سبحانه: «ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ» [يونس: ٧٤].

ففي الأولى حذف الجارّ والمجرور "به"، وفي الثانية أثبت وذكر.

وقد ورد توجيهان للآيتين في علّة ذلك، أوّلهما توجيه للإسكافي ومن وافقه، وحاصله أنّ آية يونس عليه السلام عدّيت بالباء مناسبة لما تقدّمها في قصّة نوح عليه السلام «وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا»، فعدّي "كَذَّبُوا بِهِ" بما عدّاه أوّلا "كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا".

أمّا آية الأعراف، فلم يتقدّم "التكذيب" متعدّيا بالباء، كقوله تعالى: «وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ»، فناسبها الحذف[1].

وثانيهما توجيه ابن الزبير، فيرى أنّ آية الأعراف تقدّمها ذكر للجارّ والمجرور، في قوله تعالى: «وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ» [الأعراف: ٨٦]، وقوله تعالى: «وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا» [الأعراف: ٨٧]، فلمّا ذكر التعدّي بالباء في قوله "آمَنَ بِهِ"، "بِالَّذِي"، "أُرْسِلْتُ بِهِ"، جاء قوله تعالى: «فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ» [الأعراف: ١٠١]، بالحذف اكتفاء بحصول المقصود بما تقدّم،

---

(1) ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 608، 609). البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 79، 80. كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 184. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 201. تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور التونسي، (9/ 31).

وإحرازاً للإيجاز والبلاغة.

أمّا آية يونس «فإنّه لم يتقدّم هنا ما تقدّم هناك، فلم يكن بدّ من الإتيان بالضمير "كَذَّبُوا بِهِ"، ليحصل ما وقع من التكذيب، ولترتبط الصلة بالموصول»[1].

...

الموضع التاسع: في خبر موسى عليه السلام مع فرعون.

قوله تعالى: «يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ» [الأعراف: ١١٠].

وقوله تعالى: «يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ» [الشعراء: ٣٥].

حيث وردت آية الشعراء بزيادة شبه الجملة "بسحره"، وحذفت من آية الأعراف. ذلك– حسب الخطيب الإسكافي ومن وافقه[2]– أنّ آية الأعراف من كلام الملإ، وآية الشعراء من كلام فرعون، ولمّا كان فرعون أشدّ من الملإ في ردّ أمر موسى، وأعظمهم بغضا، وكراهة له، ولِما جاء به، صرّح بأنّه "سحر"، ويؤيّده ما جاء في سورة طه، من إصرار فرعون على أنّه سحر، وذلك في قوله تعالى: «قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى»

---

(1) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 557)، بتصرّف.

(2) ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 617، 618). ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 563، 564). كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 183. تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور التونسي، (19/ 124).

[طه: ٥٧]، قاصدا بذلك كلّه تنفير الناس عن متابعة موسى عليه السلام.

أمّا الملأ فلم يبلغوا مبلغ فرعون في إبطال ما جاء به موسى، ولم يغلظوا في الخطاب غلظه، فجاء قولهم مناسبا للحذف الوارد في الآية.

ولم أجد مخالفا لهذا التوجيه، في حدود علمي ومعرفتي.

...

الموضع العاشر: في خبر موسى عليه السلام مع فرعون.

قوله تعالى: «يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ» [الأعراف: ١١٢].

وقوله سبحانه: «يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ» [الشعراء: ٣٧].

إنّ مدار المسألة في هاتين الآيتين حول ورود اللفظ الدَّال على محترف السحر بصيغة اسم الفاعل "سَاحِرٍ" في الأولى، وبصيغة المبالغة "سَحَّارٍ" في الأخرى، والحكمة في هذا التنوّع أنّ آية الأعراف قد تقدّمها قوله تعالى: "إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ" ، فناسب ذلك أن يكون ما بعدها تابعًا لها[1].

وبين آية الأعراف وآية الشعراء عموم وخصوص فكأنّ الملأ من قوم فرعون أشاروا على فرعون في أوّل الأمر أن يستدعيَ كلّ ساحر، عليم بالسحر مهما كانت درجة علمه به، ثمّ بعد ذلك– لمّا رأوا من شيوع أمر موسى وأخيه، وانتشار دينه في بني إسرائيل – شدَّدوا في الأمر، وبالغوا فيه بدعوة فرعون إلى أن يستدعيَ السّحرة المهرة الحاذقين المجيدين للسحر، حتّى يبطلوا سحر موسى– في نظرهم–؛ فجاءوا بصيغة المبالغة "سَحَّارٍ"،

---

(1) ينظر: البرهان في توجيه معاني القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 81. وينظر المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية لصالح الشري، ص: 156.

وأعقبوها بصيغة مبالغة أخرى "عَلِيمٌ"، توكيدًا لأمرهم، وتخصيصًا لطبيعة المدعوين من قِبَل فرعون؛ كونِهم أَكْفَاءَ مهَرةً، دون غيرهم من عامّة الممتهنين للسحر، دون إحاطة معرفية بأساليبه وأنواعه وإشارته، والله أعلم.

على أنَّ السحر حرفة أغلب بني إسرائيل؛ فكانت معجزة موسى من جنس ما برع فيه قومه الذين بُعث فيهم؛ وهكذا سائر الأنبياء معجزاتهم من جنس ما يحسن قومهم، وخُصُّوا به دون غيرهم[1].

...

الموضع الحادي عشر: في خبر السحرة مع فرعون.

قوله تعالى: «قَالَ فِرْعَوْنُ آَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آَذَنَ لَكُمْ» [الأعراف: ١٢٣].

وقوله سبحانه: «قَالَ آَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آَذَنَ لَكُمْ» [2].

الفرق بين الآيات حاصل في ورود الباء في الأعراف واللام في طه والشعراء ذلك أنّ الهاء في آية الأعراف في قوله: "آَمَنْتُمْ بِهِ"، عائد على الله تعالى، بدليل ما سبق، وهو قوله سبحانه: "قَالُوا آَمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ" ، والباء تحرز التصديق، وهذه هي دعوة موسى وأخيه هارون عليهما السلام، فقد دَعَوَا قومهما إلى الإيمان بالله والتصديق بما جاءا به من عند الله تعالى.

أمّا الهاء في آيتي طه والشعراء في قوله تعالى: "آَمَنْتُمْ لَهُ"، فهي عائدة على موسى عليه السلام، بدليل ما جاء بعدها وعلى لسان فرعون، وهو قوله: «إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ» [طه: ٧١]، و[الشعراء: 49]، واللام

---

(1) البرهان في علوم القرآن للزركشي، (2/ 97، 98). دلائل الإعجاز في علم المعاني لعبد القاهر الجرجاني، ص: 433. الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، (4/ 9).

(2) [طه: ٧١]، [الشعراء: ٤٩].

هنا تحرز الانقياد والإذعان والاتّباع، فكأنّ المعنى: اتّبعتموه واستسلمتم لتعاليمه، وأذعنتم لما جاء به من عند ربّه، فجاءت الباء في موضعها واللام كذلك مناسبة كلّ منهما موضعها أتمّ مناسبة. والله أعلم[1].

...

الموضع الثاني عشر: في خبر سحرة فرعون.

قوله تعالى: «قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ» [الأعراف: ١٢٥].

وقوله تعالى: «قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ» [الشعراء: ٥٠].

وقوله سبحانه: «وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ» [الزخرف: ١٤].

والكلام عن الآيات حول أمرين:

الأول: في ورود قوله تعالى: "لَا ضَيْرَ" في الآية الثانية، دون الأولى، وتتلخّص الحكمة من ذلك في ثلاثة آراء:

أ- أنّ قصّة موسى عليه السلام، جاءت في الأعراف مختصرة موجزة، وفي الشعراء مفصّلة مشبعة، وذكر فيها ما كان بين موسى وفرعون، من أوّله إلى آخره، فابتدأ بقوله: «قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ» [الشعراء: ١٨]، وختم بقوله: «ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآَخَرِينَ» [الشعراء: ٦٦]، «فلهذا وقع فيها زوائد، لم تقع في الأعراف وطه، فتأمّل وتدبّر؛

---

(1) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 633- 637). البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 83. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 572). كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 183. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 205. المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية لصالح الشثري، ص: 285.

تعرف إعجاز القرآن»[1].

ب- أنّ قوله تعالى: "لَا ضَيْرَ" في الشعراء، ورد في مقابل قوله تعالى: «وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ» [الشعراء: ٤٤]، فلمّا تبيّن لهم الحق، بعدما كانوا يعتقدون العزّة لفرعون، ونسبتها إليه، وعلموا أنّ العزّة لله سبحانه، ولم يبالوا بفرعون وملئه، "قَالُوا لَا ضَيْرَ". «أي: لا ضرر ولا خوف من فرعون، إذ العزّة لله وحده، ولمّا لم يقع من قولهم في الأعراف أوّلا مثل الواقع هنا، لم يجيئوا في الجواب بما جاؤوا هنا، فافترق الموضعان، وجاء كلّ على ما يجب. والله أعلم»[2].

جـ- أنّه «لمّا كان الوعيد في الشعراء أشدّ، ناسب مقابلتهم له بعدم التأثّر به، في مقابلة ما يرجون عند الله»[3].

الثاني: حذفت لام التوكيد من آية الشعراء، كونها إخبارا عن جواب السحرة المؤمنين لفرعون، لمّا هدّدهم وتوعّدهم، معزّين أنفسهم بما ينتظرهم من الثواب والنعيم عند ربهم، جزاء إيمانهم وصبرهم، ومستهينين بما خُوِّفوا به، فلأجل هذا، ولكونهم طائفةً مخصوصة مضت في الزمن الغابر، لم يكن للتأكيد معنى، فحذفت اللام[4].

---

(1) البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 83. وينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 645).

(2) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 576).

(3) كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 188.

(4) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، (3/ 1097). البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 174. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (2/ 890).=

أمّا آية الزخرف، فقد ذكرت فيها لام التوكيد؛ ذلك أنّه تقدّمها إنكار الكفار من مشركي العرب للبعث، ومجادلتهم وإقامة الحجة عليهم، في قوله تعالى: «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ» ، فجاءت الآية مؤكّدة باللام والنون الثقيلة، فناسب ذلك مجيء لام التوكيد في كلام المؤمنين، إقرارا منهم بما أنكره المشركون من البعث والنشور، والحياة بعد الموت، وإيمانا منهم بما كفروا به[1].

ثمّ إنّ آية الزخرف، خطاب عامّ لكلّ المؤمنين، في كلّ العصور المتقدّمة منها والمتأخّرة، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، يحثّهم الربّ سبحانه أن يقولوه في كلّ زمان، حين يركبون السفن أو الدوابّ، على سبيل الشكر والاعتراف بفضله ومنّه وكرمه، والتوكيدُ لمثل هذا لازم، وفي الكلام الذي للتأبيد والدوام واجب[2].

...

الموضع الثالث عشر: في ذكر ما كان من الأمم مع رسلهم عليهم السلام.

قوله تعالى: «قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ» [الأعراف: ١٨٨].

=كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 332. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 411.

(1) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، (3/ 1096). ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (2/ 891).

(2) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، (3/ 1096، 1097).

وقوله سبحانه: «قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ» [يونس: ٤٩].

فوردت آية الأعراف بتقديم النفع عن الضرّ، وآية يونس على العكس منها.

وإن كانت آية الأعراف خطابا للنبيّ صلى الله عليه وسلم؛ إلا أن آية يونس وردت في سياق ذكر أحوال الأمم السابقة مع رسلهم عليهم السلام، في من قبيل القصص القرآني الذي تشمله هذه الدراسة.

وقد بيّن الخطيب الإسكافي رحمه الله علّة التقديم والتأخير في الآيتين، حاصلها أنّ آية الأعراف تقدّمها ذكر الساعة في قوله تعالى: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا» [الأعراف: ١٨٧]، وقد ظنّ هؤلاء أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يعلم أوانها، ولا شكّ أنّ العلم بالشيء نفع لصاحبه، بدليل قوله تعالى: «وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ» [الأعراف: ١٨٨]، فناسب ذلك تقديم النفع الذي هو ثواب الآخرة، وتأخير الضرّ الذي هو عقابها.

أمّا آية يونس، فقد تقدّمها ذكر استعجال الكفّار العذاب، استهانة وتكذيبا، وذلك في قوله تعالى: «وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» [يونس: ٤٨]. فناسب تقديم الضرّ على النفع، ولذلك قال تعالى بعده: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ» [يونس: ٥٠]، فكلّ آية قدّم فيها النفع عن الضرّ، أو العكس، فلِتقدّم ما يناسب ذلك التقديم أو التأخير، وهذا ظاهر لمن تدبّر آيات الله، وأنعم

النظر فيها[1].

على أنّ صاحب البرهان ذكر وجها آخر للتقديم والتأخير الوارد في الآيتين، لا أرى بأسا من إيراده ها هنا، يقول: «إنّ أكثر ما جاء في القرآن من لفظي الضرّ والنفع معاً، جاء بتقديم لفظ الضرّ على النفع، لأنّ العابد يعبد معبوده خوفا من عقابه أوّلا، ثمّ طمعا في ثوابه ثانيا، يقوّيه قوله: «تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا» [السجدة: ١٦]، وحيث تقدّم النفع على الضرّ، تقدم لسابقة لفظ تضمّن نفعا، وذلك في ثمانية مواضع، ثلاثة منها بلفظ الاسم، وهي: ها هنا– الأعراف– والرعد «أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا» [الرعد: ١٦]، وسبأ «فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا» [سبأ: ٤٢]، وخمسة بلفظ الفعل، وهي في الأنعام «قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ» [الأنعام: ٧١]، وآخر في يونس «وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ» [يونس: ١٠٦]، وفي الأنبياء: «قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ» [الأنبياء: ٦٦]، والفرقان: «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ» [الفرقان: ٥٥]، وفي الشعراء: «أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ» [الشعراء: ٧٣].

أمّا في هذه السورة، فقد تقدّمه: «مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ

---

(1) ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 646– 649). ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 577، 578). كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 188.

يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» [الأعراف: ١٧٨]، فقدّم الهداية على الضلالة، وبعد ذلك: «لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ» [الأعراف: ١٨٨]، فقدّم الخير على السوء، فلذلك قدّم النفع على الضرّ، وفي الرعد: «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ» [الرعد: ١٥]، فقدّم الطوع، وفي سبأ: «قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ» [سبأ: ٣٦]، فقدّم البسط، وكذلك ما جاء بلفظ الفعل، فلسابقة معنىً يتضمّن فعلا، فتأمّل فإنّه برهان القرآن.

وفي يونس قدّم الضرّ على الأصل، ولموافقة ما قبلها: «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ» [يونس: ١٨]، وفيها: «وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا» [يونس: ١٢]، فيكون في الآية ثلاث مرات»[1].

إنّ هذا التوجيه من الإمام الكرماني رحمه الله، يفهم منه أنّ حرفي العطف الواو وثمّ، لهما نفس المعنى، الذي هو في الأصل للحرف ثمّ، وهو معنى الترتيب والتعقيب، حينما ذكر قوله تعالى: "خَوْفًا وَطَمَعًا"، ثمّ فسّر ذلك بأنّ العابد يعبد ربّه خوفا من عقابه أوّلا، ثمّ طمعا في ثوابه ثانيا.

والحقيقة غير ذلك، فإنّ الواو تفيد العطف والوصل، من غير ترتيب بين المعطوفات والموصولات، ثمّ إنّه ورد في القرآن الكريم تقديم الطمع على الخوف، في مواضع أخرى، وذلك في قوله تعالى: «إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ» [الأنبياء: ٩٠]، وقوله

---

(1) البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 84، بتصرّف. وينظر: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 213، 214.

تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا» [الإسراء: ٥٧].

فهل يفهم من الآيتين أنّهم يدعون الله رغبا، أي: طمعا في رحمته أوّلا، ثمّ رهبا، أي: خوفا من عقابه ثانيا، على مذهب الكرماني؟، كلاّ! بل المأثور عن الأئمّة المحقّقين أنّ المؤمن يعبد الله بالحبّ والخوف والرجاء؛ ولهذا قال بعض السلف: «من عبد الله بالحبّ وحده، فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده، فهو حروريّ، ومن عبده بالرجاء وحده، فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء، فهو مؤمن»، ومدار الإيمان والإحسان، على هذه الأصول، والمقامات الثلاثة[1]، والخوف والرجاء كجناحي الطائر، إذا استويا استوى الطير وتمّ طيرانه، وإذا نقص أحدهما، وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حدّ الموت[2]، أمّا المحبّة، فهي أهمّ أعمال القلوب على الإطلاق؛ لأنّها أصل أعمال الإيمان، كما أنّ التصديق أصل أقواله، وهي ثمرة العلم بجمال الربّ سبحانه، وكماله وإنعامه وإحسانه؛ لأنّ القلوب مجبولة على محبّة الكمال، وعلى محبّة من أحسن إليها.

...

(1) ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، (10/ 81، 207)، (15/ 21، وما بعدها). بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية، (3/ 522). طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن قيم الجوزية، تح: عصام فارس الحرستاني ومحمد يونس شعيب، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1418/ 1998، ص: 366.

(2) ينظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن قيم الجوزية، تح: أحمد فخري الرفاعي وعصام فارس الحرستاني، دار الجيل، بيروت، لبنان، (د، ر، ت، ط)، (1/ 570)، (2/ 40).

المبحث الخامس: بلاغة المتشابهات اللفظية في القصص القرآني الوارد في سور: يونس وهود ويوسف عليهم السلام:

1 سورة يونس عليه السلام:

ورد موضع واحد في سورة يونس يشابه موضعا في سورة غافر ورد في سياق ذكر خبر قوم نوح عليه السلام والأحزاب من بعدهم، وذلك:

قوله تعالى: «كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» [يونس: ٣٣].

وقوله تعالى: «وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ» [غافر: ٦].

فجاءت آية يونس بالفصل على الاستئناف، لأنّه لم يتقدّمها فيما اتّصل بها مقالُ مَن ذُكر، ممّن حقّت عليه كلمة العذاب، لذلك وردت غير معطوفة؛ إذ لم يتقدّمها ما يعطف عليه.

ووردت آية غافر بالوصل، لأنّه تقدّمها قوله تعالى: «مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا» [غافر: ٤]، ثمّ أعقب ذلك بذكر قوم نوح والأحزاب، وهمِّ كلّ أمّةٍ برسولهم ليأخذوه، وجادلوا بالباطل ليُدحِضوا به الحقَّ، فأخذهم الله وأهلكهم بما حقَّ عليهم، ثمّ قال تعالى: «وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ» [غافر: ٦]. فلمّا تقدّم في هذه السورة ذكرُ من حقّت عليه كلمةُ العذاب، جاءت الآية معطوفة على ما قبلها، لصلتها بها وعلاقتها بما قبلها.

على أنّ التعليل المتقدِّم لظاهرتَي الفصل والوصل في الآيتين، ممّا

ذكره ابن الزبير الغرناطي[1]، ولم أجد هذا الموضعَ عند غيره ممّن تقدّمه.

2 سورة هود عليه السلام:

تضمنت هذه السورة سبعة مواضع من المتشابهات اللفظية الواردة في القصص القرآني المجيد، وهي على التوالي:

الموضع الأول: في ذكر خبر نوح وصالح عليهما السلام.

قوله تعالى: «قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ» [هود: ٢٨].

وقوله تعالى: «قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ» [هود: ٦٣].

فورد تقديم الجارّ والمجرور على "رحمة" في الآية الأولى، الواردة في سياق ذكر قصّة نوح عليه السلام، أمّا الآية الثانية المسوقة في سياق ذكر قصّة صالح عليه السلام، فقد تأخّر فيها الجارّ والمجرور عن "رحمة"؛ ذلك أنّ ما جاء في قصّة نوح، ورد موافقا لما قبله، فقد سبقه ثلاثة أفعال، كلّها متعديّة إلى مفعولين ليس بينهما حائل بجارّ ومجرور، في قوله تعالى: «مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا»، «وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ»، «بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ»، فلهذا جاء قوله: «وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ» جامعا بين المفعولين، من غير حائل.

أمّا ما جاء في قصّة صالح، فقد وقع في جواب كلام، قد حيل بينهما بجارّ ومجرور، وهو قوله تعالى: «قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا» [هود:

---

(1) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 616، 617).

٦٢]، لأنّ خبر كان بمنزلة المفعول، فجاء الجواب بالجارّ والمجرور، الحائل بين المفعولين[1].

ثمّ إنّ قوم صالح بالغوا في إساءة الجواب، حين قالوا: "قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا" أي: كنت ترغب في أن تسودنا، وننزل عند أمرك، فرموا مقامه النبويّ بحطّ مرتبته عنهم، فلمّا بالغوا في قبح الجواب، بالغ عليه السلام في ردّ مقالهم، فقدّم المجرور، لتأكيد أنّ الرحمة من عند الله تعالى، وأنّها مخصوصة به سبحانه، دون غيره، فهي منه وحده، جلّ في علاه[2].

...

الموضع الثاني: في ذكر خبر هود وصالح ولط وشعيب عليهم السلام.

قوله تعالى: «وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ» [هود: ٥٨].

وقوله تعالى: «فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ» [هود: ٦٦].

وقوله سبحانه: «فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا» [هود: ٨٢].

وقوله جلّ شأنه: «وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ

---

(1) ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 715– 717). البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 97. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 262، 263. المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية لصالح الشثري، ص: 423، 424.

(2) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (2/ 653).

مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ» [هود: ٩٤].

فورد عطف "لمّا" على ما قبلها بالواو في قصّتي هود وشعيب عليهما السلام، وعطفها بالفاء في قصّتي صالح ولوط عليها السلام، ذلك أنّ قصّتي صالح ولوط عليهما السلام ذكر فيهما ما يدلّ على تقليل الزمان بين الفعلين، وأنّهما متعاقبان متواليان متّصلان من غير مهلة بينهما، وذلك قوله تعالى: «فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ» [هود: ٦٥ – ٦٦]، في قصّة صالح عليه السلام، وقوله تعالى: «قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ» [هود: ٨١ – ٨٢]، في قصّة لوط عليه السلام، فلمّا حدّدت المهلة في الأولى بثلاثة أيّام، وفي الثانية إلى الصباح، وهي في قلّتها تنبئ عن توالي الأحداث وتعاقبها وتسارعها والتعجيل بإهلاكهم، عبّر عن كلّ هذه المعاني بإيراد الفاء العاطفة التي تدلّ عليها.

أمّا في قصّتي هود وشعيب، فلم يسبق الآيتين ما يدلّ على تخويف بقرب ما أوعدوا به من العذاب والنكال أو تحديد لزمن إهلاكهم كما في الآيتين السابقتين ممّا يقتضي إيراد الفاء دون الواو، إنّما سيقتا لغاية الجمع بين الخبرين دون ذكر ما يقتضي الاتّصال، فكانت الواو أولى بهذين

الموضعين وأجدر. والله أعلم[1].

...

الموضع الثالث: في ذكر خبر قومي هود وموسى عليهما السلام.

قوله تعالى: «وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ» [هود: ٦٠].

وقوله سبحانه: «وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ» [هود: ٩٩].

وردت الآية الأولى مثبتة للصفة والموصوف معاً، "هَذِهِ الدُّنْيَا"، وهو الأصل، ثمّ بعد ذلك في نفس السورة، جاء الاكتفاء بالصفة وحدها دون الموصوف لدلالة الآية الأولى عليه؛ كونها في سياق متّصل من سورة واحدة[2]، وليس لهذا التوجيه مخالف حسب علمي، والله أعلم.

...

الموضع الرابع: في ذكر خبر لوط عليه السلام مع قومه.

قوله تعالى: «وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ» [هود: ٧٧].

وقوله سبحانه: «وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا

---

(1) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 747– 750). البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 98. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (2/ 657، 658). كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 212. المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية لصالح الشثري، ص: 259.

(2) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 718، 719). البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 98. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (2/ 658). فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 268.

وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ» [العنكبوت: ٣٣].

حيث زيدت "أن" بعد "لمّا" في آية العنكبوت دون آية هود.

والجواب على لسان الخطيب الإسكافي رحمه الله أن يُقال: «اقتران "أن" بـ "لمّا" في سورة العنكبوت تكملة لمعناها في نفسها، ليدلّ بذلك على أنّه قد قارن جوابها متّصلا به ما يكمّله ويخلّصه لتحقيق أو بطلان، فالتي في سورة العنكبوت قد اتّصل بجوابها، وهو: «سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا»، ما يكمّله و يخلّصه لبطلان الروع السابق إليه.

ومثله: «فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» [يوسف: ٩٦]، فقوله تعالى: "ألقاه" جواب "لمّا"، وقوله تعالى متّصلا به: "فَارْتَدَّ بَصِيرًا" تكملة للجواب.

وفي سورة هود حذفت "أن"؛ فلم يتّصل بجواب "لمّا" ما يخلّصه لتحقيق أو بطلان إلّا في الآية الخامسة، عند قوله تعالى: «قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ» [هود: ٨١]، فبعد هذا عن الجواب، ولم يتّصل به اتّصال ما يكون من تمامه»[1].

ويزيد الإمام الكرماني رحمه الله إيضاحاً وبيانا لما أبهم في كلام الإسكافي رحمه الله، فيقول: «قوله: «وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ

(1) درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 967– 969).

كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ» [العنكبوت: ٣٣]، وفي هود، قوله: «وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ» [هود: ٧٧]، "ولما جاءت" بغير "أن" لأنّ "لمّا" يقتضي جوابا، وإذا اتّصل به "أن" دلّ على أنّ الجواب وقع في الحال من غير تراخ، كما في هود، وهو قوله: «سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا»، وجاءت تكملة الجواب بعد هذا مباشرة ليدفع عنه الروع والذرع، فقال: «وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ...».

ومثله في سورة يوسف «فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا»، فجواب "لَمَّا": "أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ"، وتكملة الجواب: "فَارْتَدَّ بَصِيرًا".

أمّا في سورة هود فلم يتّصل بـ "لمّا" الجواب مباشرة، بل جاء بعد كلام طال، فلم يحسن دخول "أن" على "لمّا"» [1].

على أنّ صاحب ملاك التأويل، قد ذهب مذهبا مستقلّا عن سابقيه في توجيه الآيتين، فهو يرى أنّ ما جاء في سورة هود من دون "أن" هو على الأصل، ثمّ ورد هذا اللفظ بجملته في سورة العنكبوت متكرّرا بعينه، بزيادة "أن" على خلاف الأصل، ليحصل بين التواردين ما يرفع تثاقل اللفظ المذكور، وزيادة "أن" وحذفها جائز في كلام العرب، وهو من فصيح الكلام.

أمّا آية سورة يوسف، فيشير إلى معنى مستفاد من زيادة "أن" في الآية، وهو أنّه لمّا كان مجيء البشير إلى يعقوب عليه السلام، بعد طول الحزن وتباعد المدّة التي فارق فيها ابنه يوسف، ناسب ذلك زيادة "أن" لِما في مقتضى وصفها من التراخي، فالبشرى ليعقوب جاءت بعد طول حزن وأسى،

---

(1) البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 149، بتصرّف.

فزيدت "أن" لإفادة هذا المعنى، والله أعلم[1].

...

الموضع الخامس: في ذكر خبر لوط عليه السلام.

قوله تعالى: «فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ» [هود: ٨١].

وقوله تعالى: «فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ» [الحجر: ٦٥].

وردت زيادة الجملة الفعليّة "وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ" في الحجر، بينما حذفت من هود، وحاصل ما في الأمر أنّ ما جاء في سورة الحجر «زيادة إخبار بما ليس في سورة هود، وقد تأخّرت سورة الحجر عنها، فوفّت بما لم يذكر في سورة هود»[2]، والذي استوفته سورة الحجر هو بيان علّة سير لوط عليه السلام من وراء أهله، «لأنّه إذا ساقهم، وكان من ورائهم، علم بنجاتهم، لا يخفى عليه حالهم»[3]، وهذا هو المعتمد في تفسير الآية[4].

---

(1) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (2/ 664، 665).

(2) المصدر نفسه، (2/ 666).

(3) البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 100. وينظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 213.

(4) ينظر: تفسير الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لمحمود بن عمر الزمخشري، (2/ 561). تفسير البحر المحيط لأبي حيّان الأندلسي، (5/ 448). تفسير القرآن العظيم لابن كثير، (2/ 731). فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير لمحمد بن علي الشوكاني، تعليق: سعيد محمد اللحام، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1412/ 1992، (3/ 194).

...

الموضع السادس: في ذكر خبر هلاك قوم لوط عليه السلام.

قوله تعالى: «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ» [هود: ٨٢]، بالضمير المؤنّث.

وقوله سبحانه: «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ» [الحجر: ٧٤]، بضمير الجمع المذكّر.

ذلك أنّ قصّة لوط في سورة الحجر تصدرت[1] بقوله تعالى «إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ» فذكر قوم لوط موصوفين بالإجرام الموجب لهلاكهم، فروعي هذا المتقدم، فجاء "وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل"، ونظير هذا قوله تعالى في سورة الذاريات «قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ» [الذاريات: ٣٢ – ٣٣].

أمّا آية هود فلم تسبق بشيء من هذا؛ فاكتفى بضمير القرية، وذلك في قوله جلّ شأنه "وأمطرنا عليها". وأغنى ذلك عن ذكر المهلكين؛ إذ هم المقصودون بالعذاب، فجاء المقال بما يوافق المقام.

...

الموضع السابع: في ذكر خبر موسى عليه السلام.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ» [هود: ٩٦][2].

---

(1) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص109. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (2/666، 667).

(2) وجاء مثلها في: [غافر: 23].

وقوله سبحانه: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ» [الزخرف: ٤٦].

جاء موضعان في هود وغافر بزيادة عبارة "سلطان مبين"، وموضع في الزخرف بحذفها.

يقول الإسكافي في توجيه الآيات: «"الآيات": الأمارات التي يكتفي بها في صدق الرسل عليهم السلام، وبها تقوم الحجة على من تبعث إليهم، و"السلطان المبين": هو الحجج القاهرة التي تقهر القوم، كأنواع العذاب التي أنزلت على قوم موسى عليه السلام، إلى أن استقرّوا مقرّهم من عذاب الله الدائم عليهم»[1].

فجاء في كنف هذه الآيات كلّ الآيات التي تنزّلت عليهم، إلى منتهى حالهم، وهلاكهم، وانتقام الجبار منهم، واستقرارهم في العذاب الدائم لهم. فقال تعالى في آية هود: «فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ» [هود: ٩٧ – ٩٨]، وقال في غافر: «النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آَلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ» [غافر: ٤٥ – ٤٦].

أما آية الزخرف، فلم يكن القصد فيها إلى ذكر جملة ما عوملوا به في الدنيا، إلى منتهى مستقرّهم في العذاب الأخروي، بل جاء بعده: «وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آَيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» [الزخرف: ٤٨].

على أنّ ابن الزبير له رأي مخالف لسابقه، مفاده أنّه حيث يذكر سوء ردّ

---

(1) درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 737– 739)، بتصرّف.

المرسل إليهم، وقبح جوابهم، يقابل أبداً بتأييده بأخيه هارون، أو عضده بالآيات، ممّا يقتضي القهر والإرغام، وهو المعبّر عنه بالسلطان المبين، فيكون ذلك مقابلة لشنيع مجاوبتهم، وسوء ردّهم بالجملة. وهذا ما جاء في آيتي هود وغافر.

وحيث يكون جوابهم وردّهم دون ما تقدّم من التشديد، ناسب ذلك عدم ذكر السلطان المبين، وهو ما جاء في سورة الزخرف[1].

هذا وكلا المعنيين وارد، ومعاني القرآن لا تتزاحم، ولكن يؤيّد بعضها بعضا، والله أعلم بمراده.

...

3 سورة يوسف عليه السلام:

سيق في هذه السورة المباركة ثلاثة مواضع، وهي السورة الوحيدة التي انفردت بذكر قصة واحدة هي قصة نبي الله يوسف عليه السلام خلافا لبقية السور التي تنوعت فيها القصص الواردة بإسهاب وتفصيل مرة، وبإيجاز وإجمال أخري.

الموضع الأول: قوله تعالى: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» [يوسف: ٢٢].

وقوله تعالى: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» [القصص: ١٤].

وردت آية القصص بزيادة الجملة الفعليّة "وَاسْتَوَى"، المحذوفة في آية

---

(1) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (2/ 669، 670).

يوسف.

ولبيان سرّ الاختلاف بين الآيتين، ينبغي إدراك معنى الأشدّ والاستواء، فقد ذكر الماوردي في معنى الأشدّ ستة أقوال، فقال: «أحدهما: ببلوغ الحلم، قاله الشعبيّ، وربيعة، وزيد بن أسلم. الثاني: ثماني عشرة سنة، قاله سعيد بن جبير. الثالث: عشرون سنة، قاله ابن العباس، والضحّاك. الرابع: خمس وعشرون سنة، قاله عكرمة. الخامس: ثلاثون سنة، قاله السدّيّ. السادس: ثلاث وثلاثون سنة، قاله الحسن، ومجاهد، وقتادة، هذا أوّل الأشدّ، وفي آخر الأشدّ قولان: أحدهما أنّه أربعون سنة، قاله الحسن. الثاني: ستون سنة، حكاه ابن جرير الطبريّ»[1].

ويقول الطبريّ في تفسيره: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إنّ الله أخبر أنّه آتى يوسف لمّا بلغ أشدّه حكما وعلما. والأشدّ هو انتهاء قوّته وشبابه، وجائز أن يكون آتاه ذلك وهو ابن ثماني عشرة سنة، وجائز أن يكون آتاه وهو ابن عشرين سنة، وجائز أن يكون آتاه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، ولا دلالة في كتاب الله، ولا أثر عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم، ولا في إجماع الأمّة على أيّ ذلك كان، وإذا لم يكن ذلك موجودا من الوجه الذي ذكرت، فالصواب أن يقال فيه كما قال عزّ وجلّ، حتّى تثبت حجّة بصحة ما قيل في ذلك، من الوجه الذي يجب التسليم له، فيسلّم لها حينئذ»[2].

أمّا الاستواء، فقد ذكر الماوردي أيضا أنّ فيه أربعة أقاويل: «أحدها

---

(1) تفسير الماوردي، (النكت والعيون)، (3/ 21).

(2) جامع البيان في تأويل القرآن(تفسير الطبري) لمحمد بن جرير الطبري، (7/ 175).

اعتدال القوّة، قاله ابن شجرة. الثاني: خروج اللحية، قاله ابن قتيبة. الثالث: انتهاء شبابه، قاله ابن قتيبة. الرابع: أربعون سنة، قاله ابن عباس»[1]، والخلاف في الأشدّ والاستواء مشهور، ولم يقل أحد أنّه دون البلوغ[2].

على أنّ قول ابن العباس في الاستواء ببلوغ سن الأربعين، هو الأظهر، بدليل قوله تعالى: «حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً» [الأحقاف: ١٥]، فدلّت الآية على أنّ الأربعين سنة في آية الأحقاف، في مقابل الاستواء، في آية القصص. والله أعلم.

ومن لطائف ابن عاشور أنّه ذكر فرقا جوهريّا، بين لفظي الأشدّ والاستواء، فقال: «والحقّ أنّ الأشدّ كمال القوّة، لأنّ أصله جمع شدّة، بكسر الشين، بوزن نعمة، وأنعم، هي اسم هيئة بمعنى القوّة، ثمّ عومل معاملة المفرد، وأنّ الاستواء: كمال البنية، كقوله تعالى في وصف الزرع: «فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ» [الفتح: ٢٩]، ولهذا أريد لموسى الوصف بالاستواء، ولم يوصف يوسف إلّا ببلوغ الأشدّ خاصّة، لأنّ موسى كان رجلا طوّالا، كما في الحديث: «كأنّه من رجال شنؤة»، فكان كامل الأعضاء، ولذلك كان وكزه القبطيّ قاضيا على المكوز»[3].

أمّا عن سرّ زيادة الاستواء في آية القصص، وحذفه في آية يوسف، هو «أنّ يوسف عليه السلام، نُبِّه على ما يراد منه، قبل بلوغ الأربعين، برؤياه الكواكب، والوحي حين ألقي في الجبِّ. وإلهامه علم التعبير، وغير ذلك

---

(1) تفسير الماوردي، (النكت والعيون)، (4/ 241).

(2) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية)، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1423/ 2002، ص: 986، 1436.

(3) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور التونسي، (20/ 87).

ممّا كان في زمان حداثته، وهو تعريض بما يراد منه.

وموسى عليه السلام، لم يعلم المراد منه، ولا نُبِّه عليه قبل بلوغ الأربعين، وقبل مفارقة شعيب، فناسب قوله فيه: "وَاسْتَوَى"، لا سيما على قول الأكثر أنّ الاستواء: بلوغ الأربعين، لأنّه كمال العقل والنظر»[1].

وابن جماعة في توجيهه هذا تابع للخطيب الإسكافي، ومن وافقه[2].

...

الموضع الثاني: قوله سبحانه: «وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ» [يوسف: ٥٩].

وقوله تعالى: «فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ» [يوسف: ٧٠].

جاءت الآية الأولى بالواو، والثانية بالفاء، وعلّة هذا الاختلاف أنّ الآية الأولى ليست مرتبطة بما قبلها، فهي تحكي أوّل دخول إخوة يوسف عليه، فكانت استئنافيّة، وهو المعنى الذي تدلّ عليه الواو دون الفاء.

أمّا الثانية فوقعت بعد قوله تعالى: «وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [يوسف: ٦٩]، فدلّ ذلك على أنّ التجهيز كان بعد دخولهم على يوسف، وهي الغاية التي من أجلها أتوا واصطحبوا أخاهم من أبيهم.

---

(1) كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 215.

(2) ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 753، 754). البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 101. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (2/ 676، 677). فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 277، 278.

وقد تقدّم الإفصاح عنها في قوله تعالى: «فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» [يوسف: ٦٣]، وقوله تعالى: «وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ» [يوسف: ٦٥]، فكان اللائق بالمقام العطف بالفاء الدالّة على التعقيب والترتيب. والله أعلم[1].

...

الموضع الثالث: قوله تعالى: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ» [يوسف: ١٠٩].

وقوله تعالى: «أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» [الروم: ٩].

إنّ كلّ موضع تقدّم قوله تعالى «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ» ، فإنّه في موضع يقتضي وقوع ما بعد الفاء، وداع إليه، وسبب له، ومؤدٍّ إليه.

وكلّ موضع تقدّم قوله تعالى «أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ»، فإنّه في موضع لا علاقة له بما بعد الواو، ولا يؤدّي إليه، إنّما هي جملة استئنافيّة مستقلّة في معناها عمّا قبلها وأجنبيّة عنها.

فآية يوسف سبقها قوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» [يوسف: ١٠٩]، أي : لم يكن الرسل إلّا رجالا

---

(1) ينظر: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 279. ولمزيد بيان ينظر: المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية لصالح الشثري، ص: 261.

أرسلوا إليهم فخالفوهم، أليس ذلك داعيا إلى أن تعتبروا أنتم بآثارهم، ومشاهدة ديارهم، لتجتنبوا ما كان سببا في هلاكهم، وحتّى لا يلحق بكم ما لحق بهم. وجاء التعبير بالفاء لاتّصال السابق باللاحق وتعلّقه به، والكلام ذاته ينطبق على المواضع الأخرى[1]، علمه من علمه، وجهله من جهله.

أمّا آية الروم «أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ»، فإنّه لم يتقدّمه ما يُصيِّر هذا كالجواب عنه، إذ لم يرِد ذِكر حال أمّة من الأمم، خالفت نبيّها فعوقبت على فعلها، بل تقدّمها قوله سبحانه: «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ» [الروم: ٨]، فلمّا استقلّت عن سابقها، وصارت مثل الأجنبيّة عنها؛ جاء التعبير بالواو أولى[2]. والكلام عينه في مثيلاتها[3].

ثمّ إنّه بالنظر إلى السياق اللفظي للآيات، فإنّ آية يوسف ورد قبلها قوله تعالى: «أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» [يوسف: ١٠٧]، وبعدها قوله تعالى: «فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ» [يوسف: ١١٠]، وكلاهما بالفاء فانتظم مجيئها بالفاء مع سابقها ولاحقها.

أمّا آية الروم فإنّه جاء قبلها: «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ»، فوردت

---

(1) وهي: [الحج: 46]، [غافر: 82]، [محمد: 10]، ويلحق بها قوله تعالى: "أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ" [طه: ١٢٨].

(2) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 758– 762). البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 103. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (2/ 680، 685). كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 216.

(3) وهي: [فاطر: 44]، [غافر: 21]، ويلحق بها قوله تعالى: "أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ" [السجدة: 26].

بالواو تباعا[1].

...

المبحث السادس: بلاغة المتشابهات اللفظية في القصص القرآني الوارد في بقية السور القرآنية الكريمة:

إن ما جاء من المتشابهات اللفظية في القصة القرآنية في بقية السور لا يتعدى الموضع أو الموضعين في كل سورة، هذا بالنسبة للآيات؛ أما بالنسبة لعدد السور التي تضمنتها فهي لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، لذلك آثرنا جمعها تحت عنوان واحد طلبا للإيجاز وتجنبا للإطناب والإطالة.

1 سورة الكهف:

حفلت هذه السورة المباركة بذكر خمسة مواضع نوردها بالتفصيل فيما يأتي من الكلام.

الموضع الأول: قوله تعالى: «وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا» [الكهف: ٣٦].

وقوله سبحانه: «وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ» [فصلت: ٥٠].

فإضافة إلى تنويع الخطاب في الآيتين، فإنّ في لفظ "الردّ" من الكراهية للنفوس ما ليس في لفظ "الرجوع"، فلمّا كان آية صاحب الكهف، وصف جنّته بغاية المراد بالجنان، كانت مفارقته لها أشدّ على النفس من مفارقة صاحب حم السجدة لما كانت فيه، لأنّه لم يبالغ في وصف ما كان فيه كما

---

(1) ينظر: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 284، 285.

بالغ صاحب آية الكهف، فناسب ذلك لفظ "الردّ" هنا، ولفظ "الرجوع" هناك[1].

...

الموضع الثاني: قوله تعالى: «قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا» [الكهف: ٧٢].

وقوله سبحانه: «قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا» [الكهف: ٧٥].

لقد تواطأ أهل العلم من المفسّرين واللغويين في بيان علّة زيادة "لك" في الآية الثانية، وحذفها من الأولى، على أنّ الخضر عليه السلام قصد بالأولى تذكير موسى عليه السلام بما شرط عليه في قوله: «قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا» [الكهف: ٧٠]، وقبوله للشرط بقوله: «قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا» [الكهف: ٦٩]، فلمّا نسي موسى عليه السلام الشرط، ذكّره الخضر عليه السلام بلطف وأدب معه.

وفي الثانية كرّر موسى الإنكار على الخضر عليهما السلام، عند قتله للغلام، ولم يلتزم موسى بالشرط للمرّة الثانية، فشدّد الخضر عليه الإنكار، وأكّد القول بقوله: "لك"، لأنّ كاف الخطاب أبلغ في التنبيه والعتاب[2].

---

(1) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 825، 826). البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 121. كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 239، 240.

(2) ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 832، 833). البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 122. التفسير الكبير للإمام الرازي، =

...

الموضع الثالث: قوله تعالى: «سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا» [الكهف: ٧٨].

وقوله سبحانه: «ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا» [الكهف: ٨٢].

إنّ المعنى ذاته– ذلك الذي انقشع عنه الضباب في قوله تعالى: «فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا» [الكهف: ٩٧]– مستفاد من هاتين الآيتين؛ إذ أنّ موسى عليه السلام لم يسعفه عقله لتحمّل ما رآه من فعل الخضر عليه السلام، فحلّت عليه غشاوة الحيرة والاندهاش والانبهار، ممّا قاده إلى سلّ سيف الإنكار والتقريع على صاحبه جرّاء أفعالٍ، ظاهرها منكر وعدوان وظلم، اقترفها صاحبه، وهذا بسبب جهل موسى عليه السلام بغايات هذه الأفعال ومآلاتها وأسرارها، فجيء بالفعل تامًّا مستوفيًّا لحروفه، ليناسب حال موسى من الحيرة والانفعال.

وبعد أن كشف الخضر عليه السلام السرّ الغيبيّ من وراء أفعاله، انجلت الغشاوة عن قلب موسى عليه السلام، وحلَّ عوضا عن الحيرة أريحيةٌ بعد العلم والمكاشفة، فناسب ذلك إيراد الفعل مخفَّفًا ليوافق الخفَّة والأريحيّة التي أصبح يتمتّع بها كليم الله موسى عليه السلام، بعد علمه

=(21/ 131، 132). ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (2/ 790). كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 242. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 346. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لمحمود الألوسي، (15/ 487)، (16/ 3). تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور التونسي، (16/ 5، 6).

بخفايا الأفعال وأسرارها الصادرة عن متبوعه[1].

...

الموضع الرابع: قوله سبحانه: «فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا» [الكهف: ٧٩].

وقوله سبحانه: «فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا» [الكهف: ٨١].

وقوله تعالى: «فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا» [الكهف: ٨٢].

ويظهر جمال التنوّع، وحسن التصريف في كلام الخضر عليه السلام، في كون الأوّل في ظاهرِه إفساد فأسنده إلى نفسه، والثاني إفساد من حيث القتل، وإنعام من حيث التّأويل بسلامة الأبوين من الكفر، ودوام إيمانهما كأنّه قال: أردت أنا القتل، وأراد الله سبحانه سلامتهما من الكفر وإبدالهما خيراً منه، فأسنده إلى نفسه وإلى الله تعالى، والثالث إنعام محض فأسنده إلى الله جلّ وعلا، وهذا حسن أدبٍ من الخضر عليه السلام، مع الله سبحانه وتعالى[2].

على أنّه يتجلّى لنا معنىً آخر من تعبير الخضر عليه السلام بضمير الجمع المتكلِّم عن قتل الغلام، فقال «فَخَشِينَا... فَأَرَدْنَا» [الكهف: ٨٠، ٨١]، وهذا لكون القتل أمرًا عظيما فظيعاً لا يمكن اللجوء إليه، أو الإقدام

---

(1) للتحقّق من صحّة ما جنحنا إليه، يرجى الاطّلاع على: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لمحمود الألوسي، (16/ 21).

(2) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 122. كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 243. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 347. التفسير الكبير للإمام الرازي، (21/ 138).

عليه إلا لحكمة عاليّة، وهذا من علوم الحكمة التي وهبها الله تعالى للخضر عليه السلام[1].

...

الموضع الخامس: قوله تعالى: «فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا» [الكهف: ٩٧].

إنّ الوقوف على جماليّات العبارة القرآنيّة، من خلال ورود لفظة "استطاعوا" بالتّاء، وورودها في نفس الآية قبلها مخفّفة من دون تاء، لا يتأتّى إلّا بالنّظر إلى التّراكيب اللّغوية الّتي يتألّف منها سياق الآية الكريمة، والتطلّع إلى المعاني المستفادة منها؛ ذلك أنّ الآية تعبّر عن إرادة نفي قدرتهم على الظهور على السدّ والصعود فيه، أو نقبه وخرقه ليتسنّى لهم الخروج منه؛ ولمّا كان نقب السدّ وخرقه أشدَّ عليهم وأثقل وأعسر، والظهور عليه والصعود فيه أخفّ وأسهل وأيسر، جيء بالفعل تامّا مع الأثقل، ومخفّفا مع الأخفّ[2]، من باب الزيادة في المبنى تؤدّي إلى الزيادة في المعنى[3].

...

2 سورة مريم عليها السلام:

وفيها موضع واحد، يحكي خبر يحيى وعيسى عليهما السلام، وذلك

---

(1) ينظر: التفسير الكبير للإمام الرازي، (21/ 138). فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 347.

(2) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (2/ 790، 791). المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية لصالح الشثري، ص: 145، وما بعدها.

(3) ينظر: تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور التونسي، (16/ 38).

في: قوله تعالى: «وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا» [مريم: ١٥].

وقوله سبحانه: «وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا» [مريم: ٣٣].

فورد لفظ السلام نكرة عند ذكر يحي عليه السلام، والمتكلّم هو الله تعالى، وَوَرد معرّفا بالألف واللام عند ذكر المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام، والمتكلّم هو النبيّ الصالح عيسى عليه السلام، وذلك أنّ إدخال "الألف" و"اللام" على "سلام" يُشعِر بذكر الله سبحانه، لأنّ السلام من أسمائه سبحانه وتعالى، ويُشعر أيضا بالدعاء بطلب معنى السلامة منه؛ لأنّك متى ذكرت اسما من أسمائه، فقد تعرّضت لطلب المعنى الذي اشتُقَّ ذلك الاسم منه أيضا وإرادتِه، ويُشعر أيضا – في بعض المواضع – بعموم التحيّة، وأنّها غير مقصورة على المتكلّم، فأنت ترى أنّه ليس قولك "سلام عليك" بمعنى "سلام مني" بمنزلة قولك "السلام" في العموم.

لهذه الأسرار كان السلام من الصلاة "بالألف واللام"، إذِ الصلاة كلّها ذكرٌ لله تعالى، فلا يدخل فيها إلّا باسم من أسمائه، قال الله سبحانه: «فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ» [الواقعة: ٧٤].

فسبح من "السبحة" وهي الصلاة.

وكذلك لا يخرج منها إلّا باسم من أسمائه، وهو السلام معرّفا بالألف واللام، فاجتمع فيه الذكر والتحيّة معا.

أمّا عند قصّة يحيى عليه السلام، فقد ورد لفظ السلام نكرة بحذف الألف واللام "سلام" لاستغناء هذا الموطن عن الفوائد التي تقدّم ذكرها في الألف واللام؛ ذلك أنّ المتكلّم ها هنا هو الله جلّ وعلا، فلم يقصد تبرّكا

بذكر الاسم الذي هو السلام، ولا تعرّضا ولا طلبا كما يقصده العبد، ولا عموما في التحيّة منه ومن غيره؛ لأنّ سلاما منه – جلّ في علاه – كاف من كلّ سلام، ومغن عن كلّ تحيّة، ومُرْبٍ على كلّ أمنيّة، فلم يكن لذكر الألف واللام معنى ها هنا بخلاف الآية الثانية؛ فإنّ عيسى عليه السلام يستحيل أن يقع سلامه على نفسه خاصّة أو أن يرغب عن ذكر مولاه، ولا يأنسَ به، أو أن يترك التعرّض لمعنى الاسم وما يقتضيه، حاشاه عليه السلام[1].

...

3 سورة طه:

انفردت بموضع هي الأخرى، ذكر فيه حوار بين المولى تبارك وتعالى مع كليمه موسى عليه السلام:

قوله تعالى: «فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ» [طه: ٤٧].

وقوله سبحانه: «فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ» [الشعراء: ١٦].

إنّ ما جاء في سورة طه هو على الأصل، وعلى اللغة المشهورة، أمّا ما جاء في سورة الشعراء، فعلى لغة من يطلق المفرد على الواحد والاثنين والجمع، والمذكّر والمؤنّث، على السواء[2].

ولأنّ: فعولاً وفعيلاً يستوي فيهما المذكّر والمؤنّث، والواحد والجمع

---

(1) ينظر: نتائج الفكر في النحو لأبي القاسم السهيلي، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1412/ 1992، ص: 320، بتصرّف.

(2) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (2/ 821).

مثل: عدُوٍّ، وصديقٍ، وقول أبي ذئيب الهذلي:

أَلِكْني إليها وخير الرسو ل أعلمهم بنواحي الخبر

أراد بالرسول الرسل، فوضع الواحد موضع الجمع، كقولهم: كثر الدينار والدرهم، ولا يريدون به الدينار بعينه، إنما يريدون كثرة الدنانير والدراهم[1].

كما يأتي الرسول بمعنى الرسالة[2]، فيحمل المثنّى في سورة طه على الشخصين: موسى وهارون، والمفرد على الرسالة[3]، التي جاء بها موسى وأخوه، وهي التوراة.

وقد يفيد معنى الإكرام والتقدير والإنعام من الله تعالى، على موسى وأخيه هارون، في آية طه، حيث ذكرهما معاً؛ ويفيد معنى التّخصيص في سورة الشعراء، بكون موسى عليه السلام هو الأصل، وهو المعنِيُّ بالرسالة، فذُكِر بالإفراد، ولم يذكر معه هارون عليه السلام، باعتباره تابعاً له، وداخلاً في حُكمه[4].

...

4 سورة الأنبياء عليهم السلام:

ورد فيها موضعان. سيق في الأول خبر إبراهيم عليه السلام، وفي

---

(1) لسان العرب لابن منظور، (2/ 1166). وينظر: المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية لصالح الشثري، ص: 180.

(2) لسان العرب لابن منظور، (2/ 1166).

(3) البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 127. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 407.

(4) ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 846). فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 408.

الثاني خبر مريم عليه السلام.

الموضع الأول: قوله تعالى: «وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ» [الأنبياء: ٧٠].

وقوله سبحانه: «فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ» [الصافات: ٩٨].

عبّرت الأولى بالأخسرين والثانية بالأسفلين، لأنّ في سورة الأنبيّاء كادهم إبراهيم عليه السلام بقوله: «وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ» [الأنبياء: ٥٧]. وهم كادوا إبراهيم بقوله تعالى: «وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا»، فجرت بينهم المكايدة، فغلبهم إبراهيم لأنّه كسر أصنامهم، ولم يغلبوه لأنّهم لم يبلغوا من إحراقه مرادهم، فكانوا هم الأخسرين.

أمّا سورة الصافات، فقد قال فيها تعالى: «قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ» [الصافات: ٩٧]، فأجّجوا نارا عظيمة، وبنوا بنيانا عاليا ورفعوه إليه، ورموه منه إلى أسفل، فرفعه الله، وجعلهم في الدنيا من الأسفلين، وردهم في الآخرة (العقبى) أسفل سافلين، فخصّت الصافات بالأسفلين[1].

...

الموضع الثاني: قوله عزّ وجلّ: «وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا» [الأنبياء: ٩١].

وقوله تعالى: «أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا» [التحريم: ١٢].

---

(1) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 854، 855). البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 129، 130. كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 252.

إنّ الاختلاف حاصل في الآيتين من حيث عودةُ ضمير المؤنث الغائب في آية الأنبياء على مريم، وعودته في آية التحريم على بعضها وهو محلّ النفخ من ذاتها.

وهذا التخصيص سببه أنّ آية الأنبياء وردت في سياق ذكر جملة من الرسل عليهم السلام موصوفين بخصائص عليّة وآيات نبوية، أوّلهم إبراهيم عليه السلام، ثمّ ابنه إسحاق ثمّ ابنه يعقوب، ثمّ نوح ولوط وداوود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذو الكفل، وذو النون وزكرياء، فلمّا ذكر هؤلاء الأخيار عليهم السلام بخصائص ومنح، ناسب ذلك ذكر مريم وابنها بما منحا عليهما السلام من تشريف وتكريم جليل بقوله تعالى: «وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ».

فلمّا اتّسع المقصود هنا بذكر ابنها عيسى عليه السلام، زاد التشريف أكثر، وناسبه التوسعة في عودة الضمير؛ فأعيد إلى الذّات المطهّرة بجملتها، فقال عزّ من قائل: «فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا»، وأفهم ذلك ما أفهمه الضّمير الخاصّ بمحلّ النفخ من غير إشكال.

أمّا آية التحريم فجاءت خاتمة لمثلين عظيمين جليلين، ضُرِبا لبيان سبقية القدر بالإيمان والكفر، وهما: قضية امرأتي نوح ولوط، وانضوائهما إلى هذين النبيّين الكريمين عليهما السلام انضواء الزوجية التي لا أقرب منها، ومع ذلك لم يغنيا عنهما من الله شيئا، وقضية امرأة فرعون التي كان دعاؤها وموقفها مثلاً للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا، في أزهى صُورِه، فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذٍ وأشدهم بأسا وأعتاهم جبروتا، وفي قصره أمتع مكانٍ تجد فيه امرأة ما تشتهي... ولكنّها استعلت على هذا

بالإيمان، ولم تُعرض عن هذا العرض فحسب!، بل اعتبرته شرّا ودنسا، وبلاء تستعيذ بالله منه، وتتفلّت من عقابيله، وتطلب النجاة منه!

وهي امرأة واحدة في مملكة عريضة قوية.. وهذا فضل آخر عظيم. فالمرأة أشدّ شعورا وحساسية بوطأة المجتمع وتصوّراته. ولكنّ هذه المرأة وحددها في وسط ضغط المجتمع، وضغط القصر، وضغط الملك، وضغط الحاشية، والمقام الملوكي. في وسط هذا كلّه رفعت رأسها إلى السماء.. وحدها.. في خضّم هذا الكفر الطاغي!.

وهي نموذج عالٍ في التجرّد لله من كلّ هذه المؤثرات وكلّ هذه الأواصر، وكلّ هذه المعوقات، وكلّ هذه الهواتف، ومن ثمّ استحقت هذه الإشارة في كتاب الله الخالد، الذي تترد كلماته في جنبات هذا الكون، وهي تتنزّل من الملأ الأعلى.

ثمّ تأتي مريم ابنة عمران، إنّها كذلك مثل للتجرّد لله منذ نشأتها التي قصّها الله في سور أخرى؛ ويذكر هنا تطهّرها، ويبرّئها ممّا رمتها به يهود الفاجرة.

إنّ مريم نموذج للمرأة المتطهّرة المؤمنة المصدّقة القانتة، تضرب مثلا للمؤمنات جيلا بعد جيل[1]، فكان الحرص في الآية الكريمة على لفت النظر إلى قوّة إيمانها وعظيم تصديقها، وإثباتها في القانتين وتشبيه حالها في سابق سعادتها بالمذكورة قبلها، واجتماعهما في ضرب المثل بهما للمؤمنين؛ ولم يقصد هنا من توسّع المدح ما قصد في الأولى، والحامل على ذكرها هنا غير

---

(1) ينظر: في ظلال القرآن لسيّد قطب، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط25، 1417/ 1996، (28/ 3622).

الحامل في سورة الأنبياء مع اتحاد الوصف الواقع به التمدّح، مع تناظر الألفاظ وتشاكلها.

فاجتمع في آية الأنبياء ما قصد من مدحها ومدح ابنها عليهما السلام، ولم يقصد في آية التحريم غير ذكرها بالحال التي ناسبتها فيها امرأة فرعون، ولم يدع داع إلّا ذكر ابنها، فلهذا ورد الضمير عائد على المحلّ المخصوص بالنفخ: "فِيهِ"، فجاء كلٌّ على ما يجب والله أعلم[1].

...

5 سورة المؤمنون:

سيق فيها موضعان هي الأخرى، أولهما في قصة نوح عليه السلام مع قومه، وثانيهما في قوم أنشئ بعد نوح عليه السلام.

الموضع الأول: قوله تعالى: «فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ» [المؤمنون: ٢٤].

وقوله سبحانه: «وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ» [المؤمنون: ٣٣].

فالآية الأولى تقدّم فيها الاسم الموصول مع صلته، على الجارّ والمجرور، أمّا الآية الثانية، فقد تأخّر الاسم الموصول وصلته، عن الجارّ و والمجرور، ذلك أنّ صلة الوصول في الأولى اقتصرت على الفعل وضمير الفاعل، ثمّ ذكر بعده الجارّ والمجرور، ثمّ ذكر بعده المفعول، وهو المقول،

---

(1) درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 861، 862)، بتصرّف. وينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (2/845– 847).

وليس كذلك في الأخرى، فإنّ صلة الموصول طالت بذكر الفعل والفاعل والمفعول، والعطف عليه مرّة بعد أخرى، فقال: «الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...»، فقدّم الجارّ والمجرور، لأنّ تأخيره يلتبس، وتوسّطه ركيك، فخصّ بالتقديم[1].

على أنّ في آية الإسراء، الواردة في معرض ذكر قصّة نوح عليه السلام، مع قومه نكتة لطيفة، ينبغي الإشارة إليها، وهي أنّه مع إفادة تخصيص الذين كفروا من قوم نوح عليه السلام بالمقول، إلاّ أنّ في الكلام إشارة إلى الفئة المؤمنة القليلة، المستثناة من هذه المقولة الخسيسة، فمع قلّتها، فقد عظم أمرها، وارتفع شأنها عند الله تعالى، وإن لم يصرّح بذكرها، إلّا أنّ النفوس تستشعر وجودها وأفضليّتها وسط ذلك الجمّ من الحطام والركام، من الكافرين، والله أعلم.

...

الموضع الثاني: قال تعالى: «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» [المؤمنون: ٤١].

وقال تعالى: «ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ» [المؤمنون: ٤٤].

---

(1) ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 882). البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 135. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (2/ 876، 877). كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 266، 267. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 389. مفتاح العلوم للسكاكي، ص: 345. الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني، (2/ 170).

جاء لفظ "القوم" في أولى الآيتين معرّفا بالألف واللام، ومنكّرا في ثانيهما. والأمر في ذلك واضح جليّ، لأنّ ما سيق معرّفا وقع خاتمة لسرد قصّة أقوام معلومين، قال تعالى: «ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ» [المؤمنون: ٣١ – ٣٢]، فالرسول معلوم، والمرسل إليهم كذلك[1]، دل على ذلك قوله تعالى: «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ»، وهم قوم صالح عليه السلام دون غيرهم، فلمّا، كان في أقوام معلومين أتى بذكرهم معرفة، فقال سبحانه: «فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»، وخصّ وصفهم بالظلم، لأنّه شيء عاملوا به غيرهم، وعاملوا به أنفسهم: لتكذيبهم الرسل، وظلمهم لهم بنسبتهم إلى ما هم منزّهون عنه، ثمّ هم ظالمون لأنفسهم بأن منعوها ما عرض لهم من النعيم الأبديّ، والثواب السرمديّ.

أمّا قوله تعالى: «ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ» [المؤمنون:

---

(1) اختلف المفسّرون في المراد بالقوم في الآية؛ فقيل: هم عاد قوم هود عليه السلام، لأنّه ما كانت أمّة أنشئت في إثر قوم نوح عليه السلام إلّا عاد، وقيل: هم ثمود قوم صالح عليه السلام، والدليل عليه قوله تعالى آخر الآية: «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ» [المؤمنون: 41]، ونظيرها: «وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ» [هود: 67]، يقول القرطبي رحمه الله: «قلت: وممّن أُخذ بالصيحة أيضا أصحاب مدين قوم شعيب، فلا يبعد أن يكونوا هم، والله أعلم»، ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، (12/ 81). تفسير القرآن العظيم لابن كثير، (3/ 328). وقد رجّح كلّ من الإمام الطبري والخطيب الإسكافي قومَ صالح، بينما رجّح ابن جماعة قوم هود. على أنّي قد ذكرتُ أنّ القوم هم ثمود قوم صالح عليه السلام، نقلا عن الخطيب الإسكافي رحمه الله بتصرّف في الكلام، وإلّا فليس لي من جرأة على ترجيح أحد القولين على الآخر، والله أعلم بالصواب.

٤٤]، فإنّه وقع خاتمة لقوله جلّ شأنه: «ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آَخَرِينَ» [المؤمنون: ٤٢]، فلم يتبيّن بالمعنى من المراد، كما تبيّن في الأولى، وكانوا منكورين للمسلمين، فلمّا أمرهم بلفظ الدعاء عليهم استعمل فيهم ما يستعمل فيمن لم يتعيّن ولم يشتهر، فنكّر اللفظ، فقال سبحانه: «لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ» أي: أهلك الله كلّ قوم لا يؤمنون عند ظهور آيات الله لهم، ووجوب حججه عليهم، والمعنى: بعدا لكلّ قوم، حتّى ينسجم مع قوله تعالى: «ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ» [المؤمنون: ٤٤]. فأخبر خبرا عامّا، وأردفه بدعاء عامٍّ، ولم يكن غير التنكير ليفيد معنى العموم والشمول[1]، والله أعلم.

...

6 سورة الشعراء:

تضمنت موضعا فريدا سيق في قصة صالح عليه السلام، وهو: قوله تعالى: «مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا» [الشعراء: ١٥٤].

وقوله تعالى: «وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا» [الشعراء: ١٨٦].

فوردت الآية الأولى التي في قصّة صالح عليه السلام بالفصل، والآية الثانية التي في قصّة شعيب عليه السلام بالوصل، ذلك أنّ قول قوم صالح: «مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا»، هو بدل من قولهم: «إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ»

---

(1) لمزيد بيان في توجيه الآيتين ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 886، 887). البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 135. كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 267. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 390.

[الشعراء: ١٥٣]. فلم يغلظوا له، ولا اقترحوا عليه آية معيّنة، فكان حذف الواو أولى وأنسب.

أمّا قوم شعيب ففي خطابهم غلظ عليه وشطط، واقتراح ما اشتهوه من الآيات، فقولهم: «وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا» جملة ثانية معطوفة على ما قبلها، فعابوه بأنّه من المسحّرين، وبأنّه بشر مثلهم، وأنّه من الكاذبين، واقترحوا الآية عليه، فكان ذكر الواو هنا أحرى وأليق.

وما تقرّر من معانٍ في هذا الوجيه هو خلاصة تعليل الخطيب الإسكافي لظاهرة الفصل والوصل في الآيتين، وتبعه في ذلك عامّة علماء المتشابه اللفظي في القرآن الكريم[1].

...

7 سورة القصص:

هي الأخرى، انفردت بموضع، تضمن خبر موسى عليه السلام، وذلك في: قوله تعالى: «وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى» [القصص: ٢٠].

وقوله تعالى: «وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى» [يس: ٢٠].

تقدّم في آية القصص لفظ "رجل"، و تأخّر في آية يس.

ومن اللطائف، في هاتين الآيتين، أنّهما اتّفقتا وتشابهتا في الألفاظ، وفي موضعهما من السورتين، فكلتا الآيتين رقمهما عشرون، كلّ في سورته.

---

(1) ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 912– 916). البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 141. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (2/ 895، 896). كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 282. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 415.

أمّا عن التقديم والتأخير الوارد فيهما، فللإسكافي رأي فيه إذ يقول: «إنّ الفاعل في الموضعين لمّا كان نكرة، فالمعنى جاء جاءٍ، وقد دلّ الفعل على جاءٍ، ولا يكون الجائي من أقصى المدينة، في الأعمّ الأغلب إلّا رجلا، وكان الذي يفاد المخاطب أن يعلم أنّه جاء من مكان بعيد، إلى مجتمع الناس في القرية، وحيث لا يقرب من مجاري القصّة. ولا يحضر موضع الدعوة، ومشهد المعجزة، فقدّم في آية يس ما تبكيتُ القوم به أعظم، والتعجبُ منه أكثر، فقال: «وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ» ينصح لهم ما لا ينصحون مثله لأنفسهم، ولا ينصح لهم أقربوهم، مع أنّه لم يحضر جميع ما يحضرونه، ولم يشاهد من كلام الأنبياء ما يشاهدونه، فحثّهم على اتّباع الرسل المبعوثين إليهم، وقبول ما يأتون به من عند مرسلهم.

أمّا آية القصص، فإن المراد: جاء من لا يعرفه موسى من مكان، ولم يكن مجاورا لمكانه، فأعلمه ما فيه الكفّار من ائتمارهم به، فاستوى حكم الفاعل، والمكان الذي جاء منه، فقدّم ما أصله التقديم، وهو الفاعل، إذ لم يكن هنا تبكيت القوم بكونه من أقصا المدينة، كما كان ذلك في الآية المتقدّمة»[1].

فمعنى كلام الإسكافي أنّ العناية في آية يس كانت بالمكان الذي جاء منه الرجل، وهو أقصى المدينة، مع أنّه بعيد عنهم، لا يعرف ما يعرفونه، إلّا أنّه حصل له شرف الهداية والنصح، ما لم يحصل لهم، وفي ذلك تبكيت لهم، وتحقير من شأنهم.

---

(1) درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 1016– 1018)، بتصرّف. وينظر: مفتاح العلوم للسكاكي، ص: 344. الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني، (2/ 168، 169).

أمّا آية القصص، فوردت على الأصل، لعدم وجود داع إلى مخالفته.

...

8 سورة العنكبوت:

سيق فيها قوله تعالى: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» [العنكبوت: ٢٤].

وقوله سبحانه: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ» [العنكبوت: ٤٤].

إنّ معنى هاتين الآيتين في عمومه، متّصل اتّصالا وثيقا بما تقرّر في سابقه، وهو أنّ الإشارة في الآية الأولى ليست لقصّة إبراهيم عليه السلام، وما فيها من الأحداث فقط، بل تتعدّى ذلك إلى مجموع الوقائع قبلها. وهي قصة نوح عليه السلام، ولبثه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعو قومه، وأخذهم بالطوفان بسبب كفرهم، وإنجاء السفينة ومن فيها من المؤمنين مع نوح، وجعلها آية للعالمين، ودعوتهم إلى الاعتبار بالمكذّبين قبلهم، وقصّة إبراهيم، ودعوته لقومه، وعظيم بيانه، ووضوح صدق نبوّته، فجاء التنبيه بالإشارة إلى جميعها بقوله: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ» بصيغة الجمع.

أمّا الآية الأخرى فتشير إلى خلق الله الذي أحسن كلّ شيء خَلَقَه؛ وأتقنه فلا يضاهيه شيء، وهو مفرد فجاء التعبير عنه بالإفراد في قوله «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً»[1].

على أنّ هناك معنى خاصّا دقيقا مسلكُه، لطيفا مأخذُه، يردّنا قليلا إلى

---

(1) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (2/ 917، وما بعدها). كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 289، 290. المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية لصالح الشثري، ص: 167.

ما مضى تقريرُه من معنى كلٍّ من الفعل المضارع والاسم[1]؛ فقوله تعالى "يؤمنون"، بالفعل المضارع الذي يدلّ على التجدّد والحدوث والزيادة، دلالته لا تنضبط بزمن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم خاصّة، بل تتجاوز ذلك لتشمَل المؤمنين في عصر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ومن تبعهم وسلك طريقهم، وآمن مثلهم إلى يوم القيامة، وهؤلاء في ازدياد وكثرة غير متناهية، فناسب ذلك الجمع على "آيات" لمجموعهم غير المتناهي.

أمّا قوله تعالى "المؤمنين" بالاسم الدالّ على الثبات والدوام؛ فهو خطاب للعصبة المؤمنة في زمن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وهم جماعة واحدة محصورة العدد، محدودة العدّة، والآية الواحدة تجمعهم، فأوثر الإفراد "لآية" عن الجمع؛ إظهارا لهذه الدلالة، واستحضارًا لهذه اللطيفة[2].

...

9 سورة لقمان عليه السلام:

خلت إلا من موضع لا ثاني له وهو قوله تعالى: «إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» [لقمان: ١٧].

وقوله سبحانه: «إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» [الشورى: ٤٣].

ممّا ذهب إليه الخطيب الإسكافي، وتبعه في ذلك كلّ من الإمام الكرماني، وأبي يحي زكريا الأنصاري، واختصرا كلامه، وأجادا رحمهم الله أنّ الصبر على وجهين: صبر على مكروه ينال الإنسان ظلما، كمن قتل بعض أعزّته، وصبر على مكروه ينال الإنسان بغير ظلم، كمن مات بعض أعزّته،

---

(1) ينظر: ص: 24، 75– 77، من هذه الدّراسة.

(2) ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 949، 950). كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 290.

فالصبر على الأوّل أشدّ، والعزم عليه أوكد، وكان ما في سورة الشورى، من جنس الأوّل، لقوله تعالى: «وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ»، فأكّد الخبر باللام، وكان ما في سورة لقمان، من جنس الثاني، فاستغنى عن ذلك[1].

على أنّه سيقت آراء أخرى في الآيتين، إلّا أنّها آراء لا تنهض على ساق، وخالية من الحجّة، كون ما قرّرناه أصلا في معنى الآيتين، لما دلّتا عليه من البيان، والله أعلم.

...

10 سورة نوح عليه السلام:

ورد فيها قوله تعالى: «وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا» [نوح: ٢٤].

وقوله سبحانه: «وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا» [نوح: ٢٨].

والاختلاف حاصل في "ضلالاً" و"تباراً"، فوردت الأولى بلفظ ضلالاً لأنّها وقعت بعد قوله تعالى: «وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا» ، ووردت الأخرى بلفظ "تباراً" أي هلاكاً. لأنّها وقعت بعد قوله تعالى: «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا» [نوح: ٢٦]، وهو دعاء بالهلاك، فجاء كلّ على ما يناسب[2]. والله أعلم.

...

(1) ينظر ما قلناه مفصّلا في: درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، (3/ 1085–1087). البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 172. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 510.

(2) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي، (3/ 1219، 1220). البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 189. كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 366.

وفي ختام هذا الفصل، لا يسعنا إلا أن نقول:

إن ما جاء فيه من اختلاف في الآيات المتشابهة المتضمنة للقصص القرآني المجيد، وما سيق فيه من بيان لبراعة النظم القرآني، وجودة سبكه وقوة عباراته، وبراعة ألفاظه، وحسن تصريفه لفنون القول والكلام؛ لئن دلّ هذا دلالة واضحة وضوح الشمس في رائعة النهار على أن القرآن الكريم بلغ القمة في الإعجاز، والغاية في الإيجاز، فإن كلّ شيءٍ فيه أبهر عقول أرباب البيان: حروفه وألفاظه وجرسه، وفواصله، ونظمه، ومعانيه – «فهو الذي لا يملّه قارئه، ولا يمجّه سامعه؛ بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبّة، ولا يزال غضًّا طريّاً، وغيره من الكلام ولو بلغ في الحسن والبلاغة مبلغه يُمَلُّ مع الترديد، ويعادى إذا أُعيد، وكتابُنا يُستلَذُّ به في الخلوات، ويُؤنس بتلاوته في الأزمات، وسواه من الكتب لا يوجد فيه ذلك حتّى أحدث أصحابها لحونًا وطرقًا يستجلبون بتلك اللحون تنشيطهم على قراءتها؛ ولهذا وصف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم القرآن بأنّه لا يخلق على كثرة الرّد، ولا تنقضي عبره، ولا تفنى عجائبه، وهو الفصل ليس بالهزل؛ لا يشبع منه العلماء، ولا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، وهو الذي لم تنته الجنّ حين سمعته أن قالوا: «إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا» [الجن: ١– ٢]»[1]–.

لئن دلّ هذا على ما ذُكر، إلا أنّ ذلك غير مقصود لذاته، فمقصد

---

(1) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض، ص:188. شرح الشفا، للملا علي القاري، (1/ 576، 577). وينظر: بلاغة الاستفهام التقريري في القرآن الكريم –دراسة أسلوبية–، لمحمد مختار الشيباني، ص: 133، 134. وقد سبقت الإشارة إلى هذا الأثر مختصرا في ص: 18، من هذه الرسالة.

القرآن الأسمى، وغايته العظمى، هداية الخلق إلى الحق المبثوث بين سطوره، وفي ثنايا كلماته، والتأثير في النفوس الموصوفة بالتمرد واللجاجة والعناد والجحود، وحملها على الاستسلام لأوامره، والإذعان لتعاليمه، والاقتناع بما جاء فيه، والتدبر في ملكوت الله، وأخذ العبرة من أخباره، والاتعاظ بها، والحذر من سلوك سبل الغواية الموجبة للخسران والبوار. نعوذ بالله من الخذلان.

فليحذر المشتغلون بدراسة ألفاظ القرآن ومعانيه. من الغفلة عن هدفه الأسمى، ومقصده الأسنى، الذي من أجله أنزله الله على قلب نبيّه المصطفى، ورسوله المجتبى، ليكون للعالمين نذيرا، صلى الله عليه وسلم. قال سبحانه: «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» [يوسف: ١١١].

الفصل الثاني

القسم التطبيقيّ

قِصَّةُ إِبْلِيسَ أُنْمُوذَجاً

وفيه أربعة مباحث...

المبحث الأول: قصة إبليس، بلاغتها ودورها في البيان التذكيري

المطلب الأوّل: نبذة تاريخية عن إبليس[1].

جاء في الصحاح للجوهري: «بلس:أبلس من رحمة الله، أي يئس، ومنه سمّي إبليس، وكان اسمه عزازيل، والإبلاس أيضا: الإنكسار والخزن، يقال: أبلس فلان، إذا سكت غمّا»[2].

ويطلق عليه أيضا الشيطان، وهو في لغة العرب يطلق على كلّ عات من الإنس والجنّ[3] وقد أطلق على هذا المخلوق لعتوّه وتمرّده على ربّه، وأطلق عليه لفظ الطاغوت، يقول تعالى: «الَّذِينَ آَمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا» [النساء: ٧٦]، وهذا الاسم معلوم عند غالبيّة أمم الأرض باللفظ نفسه، وإنّما سمّي طاغوتا لتجاوزه حدّه، وتمرّده على ربّه، وتنصيبه نفسه إلها يعبد.

والشيطان الذي أخبرنا الله عنه كثيرا في القرآن، كان يعبد الله في بداية

---

(1) لمّا كانت مادة هذا الفصل من الغيب الذي يسلّم به وفق النصوص الشرعية، فإنّي اعتمدت في جمع مادّته على النقل عن الكتب التراثية في هذا المجال، ومنها على سبيل المثال: تلبيس إبليس لعبد الرحمن بن الجوزي. إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، وشفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن قيم الجوزية. آكام المرجان في عجائب وغرائب الجانّ لأبي عبد الله الشبلي. بالإضافة إلى كتب تاريخ الإسلام، كتاريخ الطبري وابن كثير وابن الأثير، رحمة الله على الجميع.

(2) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل بن حماد الجوهري، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط4، 1407/ 1987، (3/ 909). وينظر: لسان العرب لابن منظور، (1/ 256).

(3) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل بن حماد الجوهري، (1/ 357).

أمره، بل كان شديد العبادة لله، وسكن السماء مع الملائكة، ودخل الجنّة، ثمّ عصى ربّه عندما أمره أن يسجد لآدم، استكبارا وعلوّاً، فطرده الله من رحمته، وقد يئس هذا المخلوق من رحمة الله، ولذا أسماه الله إبليس، والبلس كما مضى من لا خير عنده، وأبلس يئس وتحيّر.

وهو من عالم الجنّ، قال الله تعالى: «إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» [الكهف: ٥٠]، وهذا العالم مستقلّ عن عالم الإنسان وعالم الملائكة، بينهم وبين الإنسان قدر مشترك من حيث الاتّصافُ بصفات العقل والإدراك، ومن حيث القدرةُ على اختيار طريق الخير والشر، ومن حيث التكليف؛ فهم مكلّفون برسالة الإسلام كما الإنسانُ إلّا أنّهم يخالفونه في أصل خلقتهم.

وسُمّوا جنّا لاجتنانهم، أي : استتارهم عن العيون. «قال ابن عقيل: إنّما سُمّي الجنّ جنّا لاجتنانهم واستتارهم عن العيون، ومنه سمّي الجنين جنينا، وسمّي المِجَنّ مجنّا لستره للمقاتل في الحرب»[1]، يقول سبحانه: «إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ» [الأعراف: ٢٧].

والجنّ كما جاء في التنزيل مخلوقون من النار، قال تعالى: «وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ» [الحجر: ٢٧]، وقال سبحانه: «وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ» [الرحمن: ١٥].

---

(1) آكام المرجان في عجائب وغرائب الجانّ لأبي عبد الله الشبلي، تح: قاسم السماع الرفاعي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، (د، ر، ط)، 1423/ 2002، ص: 16. وينظر: عالم الجنّ والشياطين لعمر سليمان الأشقر، دار النفائس، عمان، الأردن، ط15، 1423/ 2002، ص: 9.

والمارج أخصّ من مطلق النار، لأنّه اللهب الذي لا دخان فيه[1]، وقيل هو طرف اللهب، وفي رواية: من خالصه وأحسنه[2]، وقال النووي: المارج: اللهب المختلط بسواد النار[3]. وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها مرفوعا: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجانّ من مارج من نار، وخلق آدم ممّا وصف لكم»[4].

على أنّ آية الحجر تدلّ على أنّ خلق الجنّ كان قبل خلق الإنسان، وذلك في قوله "من قبل"، والشيطان كان مع الملائكة قبل أن يخلق آدم، فلمّا خلق الله آدم، أمره والملائكةَ بالسجود له، فكان ما كان من إبائه واستكباره، فاستحقّ لعنة الله، وطردَه من رحمته التي وسعت كلّ شيء.

والشيطان يدرك ويعقل ويتحرّك، وله قرنان، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم، عن ابن عمر، عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «لا تحرّوا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها، فإنّها تطلع بقرني شيطان»[5]، وهو قبيح المنظر والصورة، وما شبّه الله تعالى شجرة الجحيم بهم إلّا لقبح صورهم، قال سبحانه: «إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ

---

(1) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1417/ 1996، (7/ 491).

(2) البداية والنهاية لابن كثير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415/ 1994، (1/ 66).

(3) صحيح مسلم بشرح النووي، تح: عصام الطبابطي وآخرين، دار الحديث، القاهرة، مصر، ط1، 1415/ 1994، (9/ 350).

(4) الجامع الصحيح (صحيح مسلم) للإمام مسلم، (8/ 226).

(5) المصدر نفسه، (2/ 207).

رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ» [الصافات: ٦٤ – ٦٥].

وهو يأكل ويشرب لِمَا جاء في الصحيح عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإنّ الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله»[1]، ويأتي منه الطمث (النكاح) وله ذرّيّة، قال تعالى: «فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ» [الرحمن: ٥٦]، وقال تعالى: «أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ» [الكهف: ٥٠].

روى ابن كثير في تاريخه عن ابن عباس أنّ إبليس كان اسمه «قبل أن يرتكب المعصية عزازيل، وكان من سكّان الأرض، وكان من أشدّ الملائكة اجتهاداً، وأكثرهم علما، وكان من حيّ يقال لهم الجنّ. وكان من أشرف الملائكة، وأكرمهم قبيلة، وكان خازنا على الجنان، وكان له سلطان سماء الدنيا، وكان له سلطان الأرض...وقال قتادة عن سعيد بن المسيب: كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا، وقال الحسن البصري: لم يكن من الملائكة طرفة عين، وإنّه لأصل الجنّ كما أنّ آدم أصلُ البشر، وقال شهر بن حوشب وغيره: كان إبليس من الجنّ الذين طردهم الملائكة، فأسره بعضهم، وذهب به إلى السماء... فلمّا أراد الله خلق آدم ليكون في الأرض هو وذرّيّته من بعده، وصوّر جثتَه منها، جعل إبليس يطيف به، فلمّا رآه أجوف، عرف أنّه خلق لا يتمالك، وقال: أما لئن سُلِّطتُ عليك لأهلكنّك، ولئن سُلِّطتَ عليّ لأعصينّك، فلمّا أن نفخ الله في آدم من روحه، وأمر

(1) الجامع الصحيح (صحيح مسلم) للإمام مسلم، (6/ 109). موطأ الإمام مالك بن أنس برواية يحيى بن يحيى الليثي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د، ر، ت، ط)، ص: 511.

الملائكة بالسجود له، دخل إبليسَ منه حسد عظيم، وامتنع من السجود له، وقال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، فخالف الأمر، واعترض على الربّ عزّ وجلّ، وأخطأ في قوله، وابتعد من رحمة ربّه، وأُنزِل من مرتبته التي كان قد نالها بعبادته، وكان قد تشبّه بالملائكة، ولم يكن من جنسهم، لأنّه مخلوق من نار، وهم من نور، فخانه طبعُه في أحوجِ ما كان إليه. ورجع إلى أصله الناريّ، فأُهبط إبليس من الملأ الأعلى، فنزل إلى الأرض حقيراً ذليلاً مذؤوماً مدحوراً، متوعَّداً بالنار هو ومن تبعه من الجنّ والإنس»[1].

على أنّ من الجنّ من هم مؤمنون، لقوله تعالى: «قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا» [الجن: ١ – ٢].

هذا ومنذ ذلك الحين أعلن إبليس العداء لآدم وذرّيّته إلى قيام الساعة، واستنفذ كلّ الوسائل والسبل لإضلال بني آدم وإغوائهم، وصدّهم عن عبادة الله تعالى، قال سبحانه: «قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ» [الأعراف: ١٦ – ١٧]، وقال سبحانه: «قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» [الحجر: ٣٩ – ٤٠]، وقال جلّ شأنه: «قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا قَالَ

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير، (1/ 66، 67)، بتصرّف. وينظر: تاريخ الرسل والأمم والملوك (تاريخ الطبري) لمحمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د، ر، ط)، 1417/ 1997، (1/ 56، وما بعدها). الكامل في التاريخ لابن الأثير، تح: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1418/ 1998، (1/ 23، وما بعدها).

اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا» [الإسراء: ٦٢ – ٦٥]. وقال عزّ وجلّ: «فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» [ص: ٨٢ – ٨٣].

يقول قتادة: «أتاك الشيطان يا ابن آدم من كلّ وجه، غير أنّه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله»[1].

ومن وسائل كيده للإنسان[2] أنّه يزيّن له الباطل، ويورده الموارد التي يخيّل إليه أنّ فيها منفعتَه، قال تعالى: «وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ» [الأنفال: ٤٨]، ويخوّف المؤمنين من جنده وأوليائه، قال تعالى: «إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ» [آل عمران: ١٧٥]، و«يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا» [النساء: ١٢٠]، وغيرها من السبل الشيطانيّة التي لا يتّسع المقام لذكرها، التي يتظاهر فيها الشيطان ناصحاً، دالّاً على

---

(1) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن قيم الجوزية، تح: مجدي فتحي السيد، دار الحديث، القاهرة، مصر، ط5، 1417/ 1996، ص: 112. البيان في مصائد الشيطان لابن القيم، إعداد: صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1412/ 2000، ص: 25.

(2) ينظر: تلبيس إبليس لعبد الرحمن بن الجوزي، تح: محمد بن الحسن بن إسماعيل ومسعد عبد الحميد السعدني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1418/ 1998، ص: 42، وما بعدها. إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن قيم الجوزية، ص: 119، وما بعدها. عالم الجنّ والشياطين لعمر سليمان الأشقر، ص: 84، وما بعدها. البيان في مصائد الشيطان لابن القيم لصالح أحمد الشامي، ص: 30، وما بعدها.

الخير، كما فعل مع آدم وحواء عليهما السلام، قال تعالى: «وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ» [الأعراف: ٢١].

المطلب الثاني: قصّة إبليس، بلاغتها ودورها في البيان التذكيريّ.

لمّا كان إبليس بهذا القدر الفظيع من العداء لآدم وذرّيّته من بعده، وأنّه وراء كلّ خسارة وفشل لبني آدم في الدنيا والآخرة، جاءت قصّتُه مستفيضةً في القرآن الكريم؛ فلقد وردت في سبع سور من كتاب الله، بأساليب متباينة، وعبارات مختلفة، ومقاصد متنوّعة، حسب السياق النصّي لكلّ سورة؛ تُذَكّر بني آدم بين الفينة والأخرى بمكائد عدوّه، وتحذّره من أن ينساق وراء غواياته التي لا يكلّ ولا يملّ منها. وتدعوه في الوقت ذاته إلى مزيد تمسّكٍ واعتصامٍ بحبل الله، وشحذ همّته إلى صدق اللجوء إلى مولاه، حتّى لا يكون لعدوّه عليه سلطان.

ولتكرير قصّة إبليس فوائد بلاغيّة جمّة، ولطائف جماليّة متعدّدة، «وقد ذكر الله هذه القصّة في عدّة مواضع من القرآن الكريم، يبيّن في كلّ موضع منها من الاعتبار والاستدلال نوعاً غير النوع الآخر، وليس في هذا تكرار، بل فيه تنويع الآيات... فيعبّر عن القصّة بجمل تدلّ على معان فيها، ثمّ يعبّر عنها بجمل أخرى تدلّ على معان أخر، وإن كانت القصّة المذكورة ذاتها واحدة، فصفاتها متعدّدة، ففي كلّ جملة من الجمل معنى ليس في الجمل الآخر»[1].

فقد بيّن ابن تيمية رحمه الله أنّ ما يقال في القصص، أنّها مثنّاة مكرّرة،

---

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، (19/ 167، 168).

خلافُ الحقّ الذي عليه أهل التحقيق؛ ذلك أنّه ما من عبارة تنوب عن أخرى، أو تزاد في مواضع ذكر القصّة الواحدة، إلّا ولها مدلولها، ومعناها الذي استقلّت به دون غيرها، ولولاها ما كان هذا المعنى أو المدلول مستفاداً البتّة: «فليس في القرآن تكرارٌ أصلاً، وأمّا ما ذكره بعض الناس من أنّه كرّر القصص، مع الإمكان بالاكتفاء بواحدة، وكان الحكمة فيه أنّ وفود العرب كانت تَرِدُ على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فيقرئهم المسلمون شيئاً من القرآن، فيكون ذلك كافيا، وكان يبعث إلى القبائل المتفرّقة بالسور المختلفة، فلو لم تكن الآيات والقصص مثنّاة متكرّرة لوقعت قصّة موسى إلى قوم، وقصّة عيسى إلى قوم. وقصّة نوح إلى قوم، فأراد الله أن يشهّر هذه القصص في أطراف الأرض، وأن يلقيها إلى كلّ سمع، فهذا كلام من لم يقدر القرآن قدره»[1]، والله المستعان.

إنّ كلام الله الحكيم فيه «البلاغة المعجزة والموعظة الحسنة، لا تفاوت فيه أصلاً في لفظ ولا معنى... تثنّى فيه القصص والمواعظ والأحكام والحِكم، مختلفة البيان في وجوه من الحكم، متفاوتة الطرق في وضوح الدلالات، من غير اختلاف أصلاً في أصل المعنى، ولا يملُّ من تكراره، وترداد قراءته، وتأمّله واعتباره، مع أنّ جميع ما فيه أزواجٌ من الشيء وضدّه، المؤمن والكافر، والمطيع والعاصي، والرحمة العامّة والرحمة الخاصّة، والجنّة والنار، والنعيم والشقاء، والضلال والهدى، والسرّاء والضرّاء، والبشارة والنذارة، فلا ترتّب على شيء من ذلك جزاءً صريحاً، إلاّ ثنّيّ بإفهام ما لضدّه تلويحاً، فكان مذكوراً مرّتين، ومرغّباً فيه أو مرهّباً منه كرّتين.

---

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، (19/ 168، 169).

وفائدة التكرير أنّ النفوس أنفر شيء عن حديث الوعظ والنصيحة، فما لم يكرّر عليها عوداً على بدءٍ، لم يرسخ عندها، ولم يعمل عمله، ومن ثَمَّ كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يكرّر قوله ثلاث مرّات فأكثر»[1].

ولئن كان البقاعيّ يرى في القرآن تكراراً ممدوحاً ومحموداً، وأسلوباً راقيّاً من أساليب البلاغة القرآنيّة المعجزة، مستدلّاً على ذلك بتكرير النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لقوله ثلاثاً فأكثر، إلّا أنّ اللفظة أو العبارة إذا أعيدت للمرّة الثانية والثالثة قد لا يسمّى ذلك تكراراً، وإنّما هو توكيد للكلام وتحقيق له، ومعلوم أنّ التوكيد ضرب من ضروب كلام العرب وأصل فيه، وما كان ليظهر معناه، ويستفاد من الكلام لو اقتصر في الكلام على اللفظ الأوّل أو العبارة الأولى دون ترديد، إضافة إلى المعاني الجمّة التي ما كانت لتستفاد من الكلام لولا الترديد والتكرير، كالزجر والتهديد، والتعجّب وغيره. والله أعلم.

والقرآن الكريم أحسن الحديث، يبيّن غايته، ويسفر عن مقاصده في قوله تعالى: «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَاد» [الزمر: ٢٣].

ثمّ إنّ السياق له دور في إبراز المعاني، وإيضاح الدلالات التي تخدم

---

(1) نظم الدرر في تناسب الآي والسور لبرهان الدين البقاعي، (6/ 438). وقد ذكر الإمام الباقلّاني رحمه الله فوائد جمّة للتكرار في القرآن الكريم، لا يتّسع المقام لسردها كاملة، فليرجع إليها من شاء في كتابه: الانتصار للقرآن لأبي بكر الباقلّاني، تح: محمد عصام القضاة، دار الفتح، عمان، الأردن، ودار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1422/ 2001، (2/ 800– 808).

الآيات المترابطة، ضمن نطاق السورة ككلّ، فالقصّة الواردة في سياق سورة ما، فيها من المعاني والمقاصد غير التي تجدها في نفس القصّة المكرّرة في سياق آخر، ضمن سورة أخرى، وهذه الأخيرة تتضمّن معانٍ ومقاصد أخرى زائدة عن الأولى، بما يوافق السياق الذي وردت فيه، ويخدم المعنى العامّ للسورة التي تضمّنتها، وهكذا.

على أنّ ما تمّ تقريره ينطبق على قصّة إبليس كما ينطبق على القصص القرآنية الأخرى، المثنّاة في غير ما آية من الآيات، والله أعلم.

المبحث الثاني: الملمح التطبيقي للمتشابه اللفظ في القرآن الكريم وعلائقه البنوية والدلالية.

جاءت قصّة عدوّ الله، والخلائق جميعاً – إبليس– مع نبيّ الله آدم عليه السلام في سبعة مواضع من القرآن الحكيم، حيث ذُكرت في سورة البقرة، والأعراف، والحجر والإسراء، والكهف، وطه، وص.

وقد وردت في هذه المواضع السبعة من الذكر الحكيم بروايات مختلفة لفظيا من حذف وذكر، وزيادة ونقص، وإجمال وتفصيل وغيره، مع اتّحادٍ في المعنى واستيفاءٍ له، من خلال الدلالات اللغوية المستفادة من قوَّة العبارة، وانسجامها مع فحوى الخطاب ونوعية الأسلوب ضمن السياق القرآني في كلّ موضع.

وفي هذا الفصل نعمد إلى ذكر ما تشابه من الآيات في القصّة، وربطها بالدلالات والمعاني المستفادة في كلّ موضع، وبيان علاقة هذه المعاني والدلالات بالمعنى العامّ المهيمن على مقاصد القصّة البيانية والتذكيرية.

...

الموضع الأول: قوله تعالى: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ» [البقرة: ٣٤].

وقوله سبحانه: «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ» [الأعراف: ١١].

وقوله جلّ شأنه: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا» [الإسراء: ٦١].

وقوله عزّ ثناؤه: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» [الكهف: ٥٠].

وقوله عزّ وجلّ: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى» [طه: ١١٦].

ذكر الكرماني في توجيهه للآيات أنّ آية البقرة ذُكرت فيها هذه الصفات التي اتّصف بها عدوّ الله إبليس جملة ، ثمّ ذُكرت في سائر السور مفصّلا، فقال في الأعراف: «إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ» ...، وفي سبحان : «إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا»، وفي الكهف: «إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ»، وفي طه: «إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى» [1].

على أنّ ابن جماعة استدرك ما غفل عنه الكرماني في توجيهه، وهو بيان علّة الإجمال والتفصيل، فقال: «لمّا تقدّم التفصيل في السورة المكيّة أجمله في السورة المدنية وهي البقرة اكتفاءً بما تقدّم علمه من التفصيل في المكيّات» [2].

أمّا محقّق كتاب الكرماني فذكر تعليلا آخر حاصله أنّ هذه القضية تتعلّق بالعقيدة، وكلّ ما كان من أصول العقيدة في القرآن بُدئ فيه بالكلّي ثمّ بالجزئيّات، إلزاماً لصيانة الاعتقاد، وكلّ ما هو من أصول التشريع، جاء تدريجيّا من الجزئيّ إلى الكلّي [3].

والمتأمّل في هذين التعليلين يدرك أنّ ابن جماعة قدّم تعليله بناءً على نظرته إلى ترتيب الآيات حسب نزولها. أمّا الثاني، فكان تعليله بالنظر إلى ترتيب الآيات حسب ورودها في المصحف الشريف.

وما من شكٍّ أنّ التعليل الأوّل أصحّ، ذلك أنّ القرآن المكّي وردت

---

(1) البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 26.

(2) كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 92.

(3) البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 26، الحاشية رقم: 3.

آياته لتصحيح العقيدة، وبيان الحقّ وتقرير الأصول، فلزم من ذلك التفصيل.

أمّا القرآن المدني، فوردت آياته لبيان أصول التشريع العملية والتفصيل فيها، ولم يكن داع إلى تفصيل أمور العقيدة، فلقد تمكّنت من نفوس المسلمين ورسخت في قلوبهم، فوردت بالإجمال. والله أعلم.

وبناءً هذا التعليل، فإنّه يمكن بيان الدلالات اللغوية والمعنوية للآيات المتشابهة، وعلائقها البنوية، وفق المخطّط الآتي:

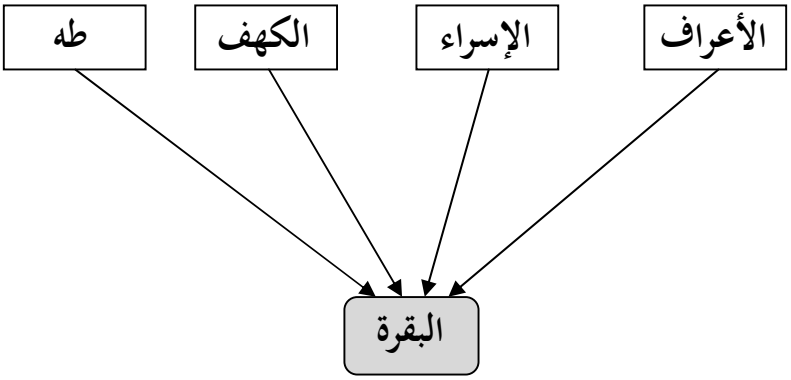

فقوله تعالى في سورة الأعراف: «إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ»، والكهف: «إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ»، وطه: «إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى»، دلالاتها في لفظة "أبى" في البقرة، وقوله تعالى: «إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا»، دلالته في لفظة "استكبر" في البقرة.

فآية البقرة وهي مدنية أجملت وجمعت كلّ المعاني المستفادة، والتي كانت مفصّلة في آيات السور المكيّة، وبهذا تكون آية البقرة شاملة لمجموع المعاني والدلالات الواردة في غيرها، والله أعلم بمراده.

...

الموضع الثاني: قوله تعالى: «قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ»

[الأعراف: ١٢].

وقوله سبحانه: «قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ»[الحجر: ٣٢].

وقوله عزّ وجلّ: «قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ» [ص: ٧٥].

فهذه الآيات الثلاث تتحدّث عن قصّة واحدة. فهي تحكي ما قاله إبليس وما قيل له. وقد اختلفت الحكايات والمحكيُّ شيءٌ واحد.

وقد بيّن صاحب الدرّة أنّ العبرة في الأخبار الماضيّة والقصص الغابرة بالمعنى لا باللفظ، فعلى الرّغم من كون الألفاظ مختلفة إلّا أنّها تؤدّي وتفيد معنى واحداً مقصوداً من سياق الآيات الثلاث، وعلى هذا يكون اتّفاق الألفاظ أو اختلافها سيان. وقد أوجز حين قال: «أقوال ثلاثة في بعض ألفاظها اختلاف. وفي المعنى اتّفاق، وهي: «مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ»، و«مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ»، و«مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ»»[1].

أمّا صاحب البرهان، فافتتح كلامه بتعليقه على بيان علّة حذف حرف النداء والمنادى "يَا إِبْلِيسُ" في آية الأعراف، وإثباته في كلّ من الحجر وص، فقال: «لأنّ خطابه قرب من ذكره في هذه السورة، وهو قوله: «إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ»، فحسن حذف حرف النداء والمنادى، ولم يقرب من "ص" قربه منه في هذه السورة، لأنّ في "ص": «إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ» [ص: ٧٤]، بزيادة "استكبر"، فزاد حرف النداء والمنادى فقال: "يَا إِبْلِيسُ"، وكذلك في الحجر، فإنّ فيها: «إِلَّا

(1) درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 544).

إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ»، بزيادة "أبى"، فزاد حرف النداء والمنادى فقال: «يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ»»[1].

ثمّ ختم ببيان السبب الذي خصّ سورة الأعراف بزيادة "لا" دون السورتين، فقال: «لمّا حذف منها "يا إبليس"، واقتصر على الخطاب، جمع بين لفظ المنع، ولفظ "لا"، زيادة في النفي، وإعلاما أنّ المخاطَب به إبليس، خلافا للسورتين فإنّه صرّح فيهما باسمه.

وإن شئت قلت، جمع في هذه السورة بين ما في "ص"، وما في الحجر، فقال: «مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ»، "مالك ألا تسجد"، فحذف "أن تسجد"، وحذف "مالك" لدلالة الحال، ودلالة السورتين عليه، فبقي «مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ»، وهذه لطيفة فاحفظها»[2].

على أنّه أخطأ في إيراد الآية التي في الحجر، وهي قوله تعالى: «مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ»، وليس "مالك ألا تسجد"، وكان الأحرى به أن يذكر الآية كما هي ويبيّن أنَّ جملة: «تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ» لها نفس المعنى مع اللفظ: "تَسْجُدَ"؛ إذ لا تلاعب في النصّ المقدّس؛ بل يحرم إيراد آياته بمعناها الذي هو جزء ممّا تحتمله وتقتضيه، وهذا سدّا لذريعة زيادة ما ليس منه.

ولزيادة الإيضاح نورد لطيفة الكرماني وفق المخطّط الآتي:

---

(1) البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 71.

(2) المصدر نفسه، ص: 72.

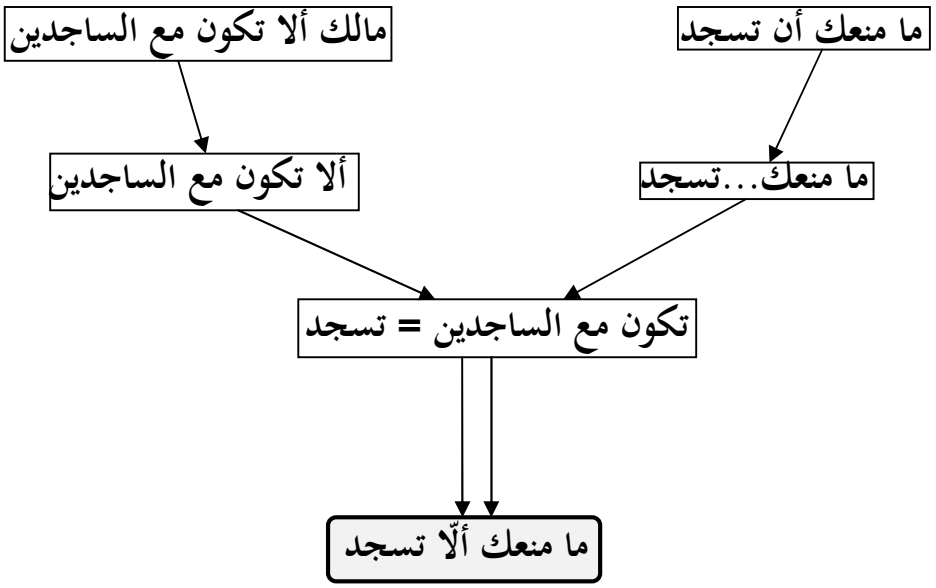

على أنّ ابن الزبير بيّن علّة حذف حرف النداء والمنادى في آية الأعراف وذكره في آية الحجر، من خلال السياق القرآني لكلّ آية.

فآية الأعراف لمّا تقدّمها «ذكر خلق الإنسان وتصويره، من غير ذكر المادّة التي خلق منها، قال تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ» [الأعراف: ١١]. والخطاب لبني آدم، ولم يذكر خلق غيرهم من ملك أو جنّ، ثمّ إنّ الأمر بالسجود ورد للملائكة، ولم يرد إشعار بأنّ إبليس من غيرهم، فسبق من ظاهر الكلام أنّه منهم ومأمور معهم لاستثنائه منهم، فناسب هذا قوله "ما منعك" لأنّه مأمور بظاهر ما تقدّم، وناسب ذلك أيضا وعضد ما قلناه قوله "إذ أمرتك"...

أمّا آية الحجر فقد تقدّم قبلها قوله تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» [الحجر: ٢٦]، إلى قوله: «فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ

فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ» [الحجر: ٢٩]، فأشارت الآية بظاهرها إلى أنّ إبليس من الملائكة، وقد نطقت الآية أنّ الملائكة هم المأمورون بالسجود، فبحسب هذا البادي من الظاهر وردت المعية في قوله: «قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ» [الحجر: ٣٢]، فلمّا لم يكن في أصل الخلقة والمادّة منهم، وكان الأمر بظاهر العبارة لهم، وإن كان مراداً أنّه معهم، فبحسب هذا قيل له: «مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ»، فقيل "معهم"، إذ ليس منهم، قال تعالى: «إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ» [الكهف: ٥٠]، وبحسب ذلك استؤنف نداؤه فقيل: "يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ"، ولم يقل "ما منعك"، لأنّ ذلك لو قيل كان يقتضي أنّه منهم، ولم يكن ليناسب ما أشار إليه صدر الكلام من أنّه ليس منهم، فنودي باسمه المشعِر بطرده ومغايرته لهم، فقيل: "يَا إِبْلِيسُ"»[1].

أمّا الآية الواردة في سورة "ص". فلم يذكرها ابن الزبير في كتابه كما فعل سابقوه، ولعلّ مردّ ذلك إلى أنّ سياقها يشبه تماما سياق آية الحجر، فينطبق ما يقال فيها على ما قيل هناك، والله أعلم.

...

الموضع الثالث: قوله تعالى: «قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ»[2].

وقوله سبحانه: «قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» [الحجر: ٣٣].

---

(1) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 487– 489).

(2) [الأعراف: 12]، [ص: 76].

ويمضي الخطيب الإسكافي في تقرير قاعدة العبرة بالمعنى لا باللفظ في القصص الماضية، فيذكر «أنّه يحصل للسامع في الآيات الثلاث معنى واحد وذكر ما حمله على ترك السجود لآدم عليه السلام لما كان مخلوقا من النار، وآدم مخلوقا من الطين، ورأى أصله أشرف من أصله، وإن كان في آية الحجر، وفي قوله تعالى: «أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا» [الإسراء: ٦١]، ذكر بعض ما دعاه إلى ما فعل، وفي آيتي الأعراف وص ذكر كلّه، من مقابلة أصله بأصله، وتوهمّه أنّه أشرف وأنّ سجود الأشرف لما دونه لا يجوز»[1].

أمّا ابن الزبير، فذكر أنّ آية الأعراف لم يقع فيها «ذكر لخلق غير الآدميين، ولا ذكرت مادّة خلق الإنسان، فناسب ذلك ما ذكره سبحانه عن إبليس من قوله: «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» [الأعراف: ١٢]، فاستوفى ذكر المادّتين وبنى على ذلك ما توهّم من فضل النار على الطين... فتناسب هذا كما تناسب أيضا ما ورد في الحجر من تبيين خلق إبليس من النار، وفصله من الملائكة، ما أعقب به من محكيّ قوله: «قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» [الحجر: ٣٣]، واحتقاره مادة الطين، وتفضيله مادة النار عليها»[2].

هذا وقد سبق في سورة الحجر ذكر لأصل خلق آدم وإبليس، وذلك في قوله تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ» [الحجر: ٢٦ – ٢٧].

---

(1) درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 545)، بتصرّف.

(2) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 488، 489).

...

الموضع الرابع: قوله تعالى: «قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ» [الأعراف: ١٣].

وقوله سبحانه: «قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ» [الحجر: ٣٤].

وقوله تعالى: «قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ» [ص: ٧٧].

الكلام ذاته عند الخطيب من أنّ الآيات لا خلاف بينها، ولها نفس المعنى، وأنّ الله تعالى «إذا أمره بالخروج من الجنّة أو من السماء، فقد أمره بالهبوط إلى الأرض»[1].

أمّا ابن الزبير فيرى أنّ هذا الاختلاف راجع إلى ما تقدّم الآيات من معان ضمن سياقها القرآني، فيذكر أنّه «قيل في آية الأعراف "اهبط منها"، وليس التعبير بالإخراج كالتعبير بالهبوط، فقد أمر آدم بالهبوط ولم يقصد من تعنيفه ما قصد بإبليس، فالفرق ما بين العبارتين فيما تعطيانه، قيل في الأعراف: "فَاهْبِطْ مِنْهَا"، إذ لم يتقدّم فيها من أنّه ليس من الملائكة، كما تقدّم في الحجر، بل ظاهر ما في الأعراف أنّه منهم، فجرى الأمر آخرا مناسبا لهذا الظاهر، فعبّر بالهبوط، ولمّا تقدّم في الحجر أنّه ليس من الملائكة لخلقه من نار السموم، فأشعر ذلك بشرّ المادّة، ناسبه قوله: "فَاخْرُجْ مِنْهَا"، واتبّاع ذلك بما يلائمه من الوصف، ويناسبه من قوله: "فَإِنَّكَ رَجِيمٌ"، ثمّ بما كتب عليه من الطرد واللعنة، ولم يرد في الأعراف هكذا، بل روعي فيه مناسبة ما تقدّم، ولئلاّ يتنافر الكلام، ويتنافر المعنى، فقيل: «فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ» [الأعراف: ١٣]، فإن

---

(1) درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 546).

قلت: فقد قيل هنا: "فاخرج"، كما قال في سورة الحجر، قلتُ: تدرّج به إلى التعنيف، وسيق هناك من أوّل وهلة، وجاء كلّ على ما يجب ويناسب»[1].

أمّا عن سرّ اختِصاص كلّ موضع بما يناسبه من اللفظ، وعودة الضمير، فللمفسرين فصل الخطاب فيها، يقول ابن الجوزي رحمه الله: «في هاء الكناية قولان: أحدهما: أنّها ترجع إلى السماء، لأنّه كان فيها، قاله الحسن، والثاني: إلى الجنّة، قاله السدّي»[2].

وقال ابن كثير: «ويحتمل أن يكون عائداً إلى المنزلة التي هو فيها في الملكوت الأعلى»[3].

ويقول ابن عطيّة في تفسيره: «وقوله تعالى: "فَاهْبِطْ مِنْهَا"، أمرٌ من الله عزّ وجلّ لإبليس بالهبوط في وقت عصيانه في السجود، فيظهر من هذا أنّه أهبط أوّلاً، وأخرج من الجنّة، وصار في السماء، لأنّ الأخبار تظاهرت أنّه أغوى آدم وحواء من خارج الجنّة، ثمّ أمر آخراً بالهبوط من السماء مع آدم وحواء والحيّة»[4].

...

الموضع الخامس: قوله تعالى: «قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ» [الأعراف: ١٤ –١٥].

---

(1) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (1/ 489، 490).

(2) زاد المسير في علم التفسير لعبد الرحمن بن الجوزي، (3/ 134).

(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، (2/ 273).

(4) المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي، ص: 687، 688.

وقوله عزّ وجلّ: «قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» [1].

دخلت الفاء في قوله "فأنظرني"، في سورتي الحجر وص، وحذفت منه في سورة الأعراف.

ويعلّل ذلك الخطيب بقوله: «والجواب أن يقال: إنّ قوله: "انظرني" في سورة الأعراف، وقع مستأنفا، غير مقصود به عطف على ما يقع به هذا السؤال عقيبه، فلم يحتج إلى الفاء.

والجواب أيضا: لمّا لم يكن إجابة له إلى ما طلب، لم يكن أيضا معطوفا عليه بالفاء وإنّما سأل تأخير أجله، فقال: "إنّك" في حكمي ممّن أخّر أجله، لا لأجل مسألتك.

وأمّا في الآيتين في سورتي الحجر وص، فإنّه قال عزّ من قائل: «قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي»، وجاء بعد إخبار الله بلعنه له، فكأنّه قال: ياربّ إن لعنتني وآيستني من الجنّة، فأخّر أجلي إلى يوم يبعثون، ويوم يبعثون هو يوم القيامة لا يوم الإماتة، فلم تقع الإجابة إلى ما طلب، لأنّه قال: «قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ»، أي: إلى الوقت الذي هو آخر أوقات الأحياء، فاقتضى إضمار "إن لعنتني يا رب"، أن يأتي بالفاء فيقول: "فانظرني"، ويأتي في جوابه بها، وهو قوله: «فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ»، لأنّ التقدير: إن طلبت تأخير الأجل، وتنفيس المهل من أجل أن لعنت، فإنّك مؤخّر الموت، لما حكمت به لك، لا لإجابتك إلى مسألتك، فهو معطوف على السؤال عطف الكلام على الكلام الذي يقتضيه، لا عطف الإيجاب

---

(1) [الحجر: 36– 38]، [ص: 79– 81].

على السؤال، لأنّ الله تعالى لم يجب عاصيا مثله إلى ما يسأل.

فدخول الفاء في الموضعين، لتقدّم ذكر اللعن، وأنّ المعنى: إن آيستني من رحمتك فأخّر أجلي لأنال من عدوّي الذي كان سبب ذلك، ما أقدر عليه من الإغواء له، ولمن يكون من نسله، واستشفى بذلك لجهله، نعوذ بالله من طاعة الهوى المؤدّي إلى سبيل الردى»[1].

على أنّ هناك من ردّ اختلاف الآيات إلى المناسبة اللفظية، فحين «اقتصر في السؤال على الخطاب دون صريح الاسم في سورة الأعراف، اقتصر في الجواب أيضا على الخطاب دون ذكر المنادى، وأمّا زيادة الفاء في السورتين دون الأعراف فلأنّ داعية الفاء ما تضمّنه النداء من: أدعو أو أنادي، نحو: «رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا» [آل عمران: ١٩٣]، أي: أدعوك، وكذلك داعية الواو في قوله: «رَبَّنَا وَآتِنَا» [آل عمران: ١٩٤]، فحذف المنادى في الأعراف، فلمّا حذفه انحذفت الفاء، ولمّا خلا السؤال عن الفاء، خلا الجواب عنه، ولمّا ثبتت الفاء في السؤال في السورتين ثبتت في الجواب»[2].

ومنهم من ردّ علّة الاختلاف إلى كون آية الأعراف بُنِيَت على الإيجاز، فناسبها الحذف، أمّا سورتي الحجر وص فمقامهما الإطناب، فناسبها الذكر والزيادة[3]، والله أعلم.

---

(1) درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 548– 550). وينظر: كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 175.

(2) البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 72، بتصرّف. وينظر: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 188.

(3) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل=

والذي عليه جلّ المفسّرين واللغويّين أنّ الله تعالى لم يُجِب إبليس إلى ما أراد.

يقول ابن جرير الطبري رحمه الله: «...وإنّما كان مجيبا له إلى ما سأل لو كان قال له: إنّك من المنظرين إلى الوقت الذي سألت، أو إلى يوم البعث» [1]، لكن قال: «إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ» [ص: ٨١]، والوقت المعلوم هو النفخة الأولى في الصور، التي يصعق لها من في السموات ومن في الأرض من المخلوقين، وهذا الخبر مرويّ عن ابن عباس[2].

لكن الذي أراه والله أعلم أنّ الله تعالى أجابه إلى ما سأل كما أورد ذلك ابن كثير رحمه الله[3] لِما في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع، ولا معقّب لحكمه وهو سريع الحساب.

وإبليس لعنه الله كانت غايته أن يؤخَّر في أجله إلى آخر الأمر، حين يفنى جميع الخلق حتّى يستمرّ في إغوائه الخلقَ إلى آخر لحظة، وهو يعلم يقينا أنّ الله تعالى كتب الفناء على كلّ شيء، وإنّما طلب التأخير إلى يوم البعث مبالغة في التأخير، وليس لأجل أن لا يذوق الموت، لأنّ الموت ينقطع بعد البعث.

والسؤال هنا عن سرّ إجابة الله جلّ وعلا لسؤال إبليس؛ وقد تولّى

=لابن الزبير الغرناطي، (1/ 490، 491).

(1) جامع البيان في تأويل القرآن(تفسير الطبري) لمحمد بن جرير الطبري، (5/ 442).

(2) ينظر: الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1411/ 1990، (4/ 184). المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي، ص: 688.

(3) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير، (2/ 273).

الإجابة عن ذلك ابن القيم رحمه الله[1]، إذ بيّن أنّ في ذلك من الحِكم العظيمة، والأسرار البليغة، ما تضيق بها الأوهام، وما تَقصُر عن إدراكها الأفهام.

فمنها أنّ الله سبحانه لمّا جعله مَحَكًّا ومِحنة، يُخرج به الطيب من الخبيث، ووَلِيَّهُ من عدوِّه، اقتضت حكمته جلّ في علاه إبقاءَه، ليحصل الغرض المطلوب بخلقه، ولو أماته لفات ذلك الغرض، كما أنّ الحكمة اقتضت بقاء أعدائِه الكفار في الأرض إلى آخر الدهر، ولو أهلكهم البتّة لتعطّلت الحِكمُ الكثيرة في إبقائهم، ولتعطّلت سُنَّةُ التدافع بين الخير والشرّ، والحق والباطل إلى قيام الساعة، ولَمَا كان لوجود الخلق في هذه الدنيا معنى، فكما اقتضت حكمته سبحانه امتحان آدمَ عليه السلام، اقتضت امتحان أولادِه من بعده به، فتحصل السعادة لمن خالفه وعاداه، وينحاز إليه من وافقه ووالاه.

ومنها أنّه لمّا سبق حلمُه وحكمتُه أنّه لا نصيب له في الآخرة، وقد سبق لإبليس عبادة وطاعة لله عزّ وجلّ قبل إعلانه التمرّد والعداء لله سبحانه، والله جلّ وعلا حَكَمٌ عَدْلٌ لا يَظلِم أحدا، ولا يُظلَم عنده أحد، ولا يَغمِط أحداً حسنةً عمِلها، فجزاءً لإبليس على تلك العبادة والإطاعة التي كانت منه قبل معصيتِه، أجاب الله سؤاله حتَّى يستوفِيَ أجره كاملا غير منقوص في هذه الدنيا التي اختارها هو لنفسه، وآثرها على الآخرة الباقية التي ليس له

---

(1) ينظر: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن قيّم الجوزية، تح: عصام فارس الحرستاني ومحمد إبراهيم الزغلي، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1417/ 1997، ص: 596، 597، بتصرّف. وقد أوردها عمر سليمان الأشقر مختصرة في كتابه: عالم الجنّ والشياطين، ص: 198.

ولأتباعه فيها شيء البتّة.

ومنها أنّ إبقاءه لم يكن كرامةً في حقّه، فإنّه لو مات كان خيراً له، وأخفَّ لعذابه، وأقلَّ لشرّه، ولكن لمّا غلظ ذنبه بالإصرار على المعصية، ومخاصمة من ينبغي التسليمُ لحكمه، والقدحِ في حكمته، والحلف على اقتطاع عباده، وصدّهم عن عبوديته، كانت عقوبة الذنب أعظمَ عقوبة بحسب تغلُّظه، فأُبقِيَ في الدنيا، وأُمْلِيَ له ليزداد هذا إثما على إثم ذلك الذنب، فيستوجب العقوبة التي لا تصلح لغيره، فيكون رأسَ أهل الشرّ في العقوبة، كما كان رأسَهم في الشرّ والكفر، ولمّا كان إبليس مادّةَ كلّ شرٍّ؛ فَعَنْهُ يَنْشَأُ، جوزي في النار مثل فعله، فكلّ عذاب ينزل بأهل النار، يبدأ به فيه، ثمّ يسري منه إلى أتباعه عدلاً ظاهراً، وحكمة بالغة.

ومنها أنّه قال في مخاصمته لربّه: «أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا» [الإسراء: ٦٢]. وعلم الله سبحانه أنّ في الذرّيّة من لا يصلح لمساكنته في داره، ولا يصلح إلّا لما يصلح له الشوك والروث، أبقاه له، وقال له بلسان القدر: هؤلاء أصحابك وأولياؤك، فاجلس في انتظارهم، وكلّما مرّ بك واحد منهم فشأنُك به، فلو صلح لي، لما ملّكتك منه، فإنّي أتولّى الصالحين، وهم الذين يصلحون لي، وأنت وليّ المجرمين الذين غنوا عن موالاتي وابتغاء مرضاتي، قال تعالى: «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ» [النحل: ٩٩ – ١٠٠].

...

الموضع السادس: قوله تعالى: «قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ

شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ» [الأعراف: ١٦، ١٧].

وقوله سبحانه: «قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» [الحجر: ٣٩، ٤٠].

وقوله جلّ شأنه: «قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» [ص: ٨٢، ٨٣].

حيث اختلفت المحكيات في الآيات الثلاث، وحذفت الفاء في آية الحجر، وأثبتت في الأعراف وص.

يرى الخطيب الإسكافي ومن وافقه[1] أنّ الباء للقسم، ومتى حُملت على القسم في الآيات الثلاث، لم يكن هناك اختلاف في المعنى، لأنّ المراد: بإغوائك إيّاي.

هذا وكلّ ما يحتمله من معان دالّ على عزّته سبحانه، وهو فرع من فروعها، وأثر من آثارها، ولعلّ إبليس أقسم بهما جميعاً– أي: بالعزّة والإغواء الذي يدلّ على الخيبة والإهلاك، وهو فرع من فروع العزّة– فحكى تارة قسمه بهذا، وأخرى بذاك[2].

أمّا عن حذف الفاء في آية الحجر، فلأنّه دعاء ونداء، والكلام بعد الدعاء والنداء مستأنف منقطع عمّا قبله، والموضعان الآخران لم يدخل فيهما نداء يوجِب استئناف ما بعده، فلذلك وُصِل القسم فيهما بالأوّل بدخول الفاء، والفاء توجِب اتّصال ما بعدها بما قبلها.

---

(1) ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 551– 554). البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 72، 73. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 189.

(2) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لمحمود الألوسي، (14/ 72).

على أنّ من المفسّرين من ذكر أنّه كما يحتمل أن تكون الباء للقسم، كذلك يحتمل أن تكون للسببيّة، يقول ابن كثير رحمه الله: «يخبر الله تعالى أنّه لما أنظر إبليس "إلى يوم يبعثون"، واستوثق إبليس بذلك، أخذ في المعاندة والتمرّد فقال: «قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ» [الأعراف: ١٦]، أي: كما أغويتني، قال ابن عباس: كما أضللتني، وقال غيره: كما أهلكتني لأقعدنّ لعبادك الذين تخلُقُهم من ذرّيّة هذا الذي أبعدتني بسببه على صراطك المستقيم، أي طريقِ الحقّ وسبيلِ النجاة، لأضلّنّهم عنها لئلّا يعبدوك، ولا يوحّدوك بسبب إضلالك إيّاي، وقال بعض النُّحَاةِ: الباء هنا قسميّة، كأنّه يقول: فبإغوائك إيّاي لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم»[1].

وليس على الرأيين معترَض، فآيات القرآن لا تضيق عن هذه المعاني كلِّها بل تحتملها وتدلّ عليها سياقاتُها اللفظيّة والمعنويّة على حدٍّ سواء.

...

الموضع السابع: قوله تعالى: «وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ» [الحجر: ٣٥].

وقوله سبحانه: «وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ» [ص: ٧٨].

ورد لفظ اللعن معرّفا بالألف واللام في آية الحجر، ومضافا إلى ياء المتكلّم في آية ص، واللعن هو «الطرد والإبعاد على سبيل السخط، وذلك من الله تعالى في الآخرة عقوبة، وفي الدنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه»[2].

---

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، (2/ 273، 274).

(2) ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 771، 772). البرهان في توجيه=

ولا خلاف في أنّ اسم الجنس المعرّف بالألف واللام "اللعنة" في آية الحجر ورد موافقا ومتلائما مع غيره من الألفاظ الواردة في سياق الآية، فكلّها وردت معرّفة بالألف واللام وهي: "الإنسان، و"الجانّ"، و"الملائكة" وذلك في قوله تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ» [الحجر: ٢٦، ٢٧]، وقوله سبحانه: «فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ» [الحجر: ٣٠]، فجاء قوله: «وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ» موافَقَةً لما تقدّمه، ولم يكن غيره ليناسب في موضعه، والله أعلم[1].

أمّا آية "ص" فقد تقدّمها قوله تعالى: «لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ»، مضيفا سبحانه خلق آدم إليه تشريفا له، فأضاف تباعا طردَ عدوّه إليه أيضا زيادة في كرامة آدم عليه السلام، فقال: "لعنتي"[2]، فانسجم السابق مع اللاحق في نظم متوازن، لا اختلال فيه ولا اعتلال.

ومزيدا للإيضاح والبيان، للأسباب الداعية لهذا الاختلاف في الآيات المتشابهة، نورد مخطّطا لبيان الفروق التعبيرية لمقاطع القصّة في كلّ سورة:

=متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 108. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 297.

(1) ينظر: درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، (2/ 772). البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، ص: 108. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، (2/ 725). كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، ص: 223. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، ص: 297. وللاستزادة ينظر: المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية لصالح الشثري، ص: 238.

(2) في ظلال القرآن لسيّد قطب، (4/ 2145).

المبحث الثالث: أهمية المتشابه اللفظ في التصوير الفني والتناسب اللفظي والمعنوي في القرآن الكريم

المطلب الأوّل: آليّات التصوير الفنّي في المتشابه اللفظي والقصصي في القرآن الكريم.

يقول سيد رحمه الله: «التصوير هو الأداة المفضّلة في أسلوب القرآن، فهو يعبّر بالصورة المحسّة المتخيّلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسيّة، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنسانيّ، والطبيعة البشريّة، ثمّ يرتقي بالصورة التي يرسمها، فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجدّدة، فإذا المعنى الذهنيّ هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسيّة لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنسانيّ شاخص حيّ، وإذا الطبيعة البشريّة مجسّمة مرئيّة»[1]، ثم يردف قائلا: «فأمّا الحوادث والمشاهد، والقصص والمناظر، فيردّها شاخصة حاضرة، فيها الحياة وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كلّ عناصر التخييل، فما يكاد يبدأ العرض حتّى يحيل المستمعين نظّارة، وحتّى ينقلهم نقلا إلى مسرح الحوادث الأوّل، الذي وقعت فيه أو ستقع، حيث تتوالى المناظر، وتتجدّد الحركات، وينسى المستمع أنّ هذا كلام يتلى، ومثل يضرب، ويتخيّل أنّه منظر يعرض، وحادث يقع، فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو، وهذه سمات الانفعال بشتّى الوجدانات المنبعثة من الموقف، المتساوقة مع الحوادث، وهذه كلمات تتحرّك بها الألسنة، فتنمّ عن الأحاسيس المضمرة، إنّها الحياة هنا، وليست

---

(1) التصوير الفني في القرآن لسيد قطب، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط11، 1414/ 1994، ص: 34. وينظر: نظرية التصوير الفني عند سيد قطب لصلاح عبد الفتاح الخالدي، دار الفرقان، عمان، الأردن، ط1، 1403/ 1983، ص: 129، وما بعدها.

حكايةَ الحياة»[1].

ويبين قيمة اللفظ في عملية التصوير بقوله: «فإذا ما ذكرنا أنّ الأداة التي تصوّر المعنى الذهنيّ والحالة النفسيّة، وتشخّص النموذج الإنسانيّ أو الحادث المرويّ، إنّما هي ألفاظ جامدة، لا ألوان تصوّر، ولا شخوص تعبّر، أدركنا بعض أسرار الإعجاز في تعبير القرآن»[2].

ويستدل على قوله بإعطاء أمثلة وجيهة، فيذكر أن: «الأمثلة على هذا الذي نقول هي القرآن كلّه، حيثما تعرّض لغرض من الأغراض التي ذكرناها، حيثما شاء أن يعبّر عن معنى مجرّد، أو حالة نفسيّة، أو صفة معنويّة، أو نموذج إنسانيّ، أو حادثة واقعة، أو قصّة ماضية، أو مشهد من مشاهد القيامة، أو حالة من حالات النعيم والعذاب، أو حيثما أراد أن يضرب مثلا في جدل أو محاجّة، بل حيثما أراد هذا الجدل إطلاقا، واعتمد فيه على الواقع المحسوس والمتخيّل المنظور.

وهذا هو الذي عنيناه حينما قلنا: «إنّ التصوير هو الأداة المفضّلة في أسلوب القرآن»، فليس هو حلية أسلوب، ولا فلتة تقع حيثما اتّفق، إنّما هو مذهب مقرّر، وخطّة موحّدة، وخصيصة شاملة، وطريقة معيّنة، تستخدم بطرائق شتّى، وفي أوضاع مختلفة، ولكنّها ترجع في النهاية إلى هذه القاعدة الكبيرة: قاعدة التصوير.

ويجب أن نتوسّع في معنى التصوير، حتّى ندرك آفاق التصوير الفنّي في

---

(1) المصدر السابق، ص: 34، 35.

(2) المصدر السابق، ص: 34، 35. وينظر: نظرية التصوير الفني عند سيد قطب لصلاح عبد الفتاح الخالدي، ص: 129، وما بعدها.

القرآن؛ فهو تصوير باللون، وتصوير بالحركة، وتصوير بالإيقاع، وكثيراً ما يشترك الوصف والحوار وجرس الكلمات، ونغم العبارات، وموسيقى السياق في إبراز صورة من الصور، تتملّاها العين والأذن، والحسّ والخيال، والفكر والوجدان.

وهو تصوير حيّ منتزع من عالم الأحياء، لا ألوان مجرّدة، وخطوط جامدة، تصوير تقاس الأبعاد فيه والمسافات بالمشاعر والوجدانات، فالمعاني ترسم وهي تتفاعل في نفوس آدميّة حيّة، أو في مشاهد من الطبيعة تخلع عليها الحياة»[1].

هذا هو معنى التصوير الفنّي في القرآن الكريم بأدواته وخصائصه وآفاقه وآثاره، بلسان منظّره، الأديب الكبير سيّد قطب رحمه الله، فللّه درّه، لقد أحدث نقلة نوعيّة في مجال الدراسات الإعجازية واللغويّة والبيانيّة على حدّ سواء، وما كان القرآن ليُفهم بغير توظيف آليات التصوير الفنّي في آياته.

والصورة التي يرسمها القرآن في الآيات المشابهة، لا تختلف باختلاف بعض ألفاظها، ذلك أنّ قاعدة التصوير تنظر إلى معاني القرآن نظرة شاملة موحّدة، فتظهر من خلالها الصورة وضيئة متكاملة، تتلاشى في حركاتها وألوانها وإيحاءاتها تلك الفوارق والاختلافات في الحروف والكلمات والجمل على حدّ سواء.

على أنّنا سنعرض بعض النماذج القرآنيّة، لنرى ما يضفيه التصوير من جماليات في العبارة القرآنية، والله الموفق.

---

(1) المصدر السابق، ص: 35. وينظر: نظرية التصوير الفني عند سيد قطب لصلاح عبد الفتاح الخالدي، ص: 129، وما بعدها.

أوّل هذه النماذج قوله تعالى: «فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ» [الأعراف: ٧٩]. وقوله سبحانه: «فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ» [الأعراف: ٩٣].

الآية الأولى وقعت خبراً عن نبيّ الله صالح عليه السلام، وما قاله لقومه بعد أن أهلكهم الله، أمّا الآية الثانية، فقد سيقت في معرض ذكر نبيّ الله شعيب عليه السلام، وما قاله لقومه بعد هلاكهم.

فالآية الأولى ترسم لنا مشهد نبيّ الله صالح عليه السلام الذي تحدّاه قومه وكذّبوه: ««فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ»، إنّه الإشهاد على أمانة التبليغ والنصح، والبراءة من المصير الذي جلبوه لأنفسهم بالعتوّ والتكذيب»[1].

إنه مشهد يعود بالخيال البشريّ إلى الوراء.. إلى ذلك الزمان المتقادم في القدم، ليعيش لحظات مع هذا النبيّ الكريم، ويراه في صورته الحقيقيّة.. يراه في صورة ترسمها ريشة الصدق والوفاء، وصفاء السريرة، ونقاء الضمير، يظهر فيها ذلك النبيّ الأمين عليه السلام، وكيف يحاول من غير كلل ولا ملل إنقاذ قومه من هلاك ودمار محتوم، بهدايتهم إلى الإيمان، والأخذ بأيديهم إلى بَرّ الأمان، ثمّ يلتفت إلى الجانب الآخر، ليرى قوم صالح عليه السلام، فيظهرون في تلك الصورة المظلمة المضطربة المكذّبة بالحقّ الظاهر، والمتحدّية للنبيّ الطاهر.

وفي هذا الصراع بين الحقّ والباطل، والهداية والضلال، والغيّ والرشاد..

---

(1) في ظلال القرآن لسيّد قطب، (3/ 1314).

في خضمّ هذا كلّه تتدخّل سنّة الله في الكون، القاضية بإبطال الباطل ودحضه، وإحقاق الحقّ وإظهاره، وتهيئة الأرض لأهله، بعد تطهيرها من كلّ منغّص. «وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا» [الأحزاب: ٦٢].

وفي خضّم هذه الصور المتلاحقة، والحركات المتسارعة، والمشاهد المروّعة؛ إذا بالصورة تسترجع هدوءها وسكونها، ويتبدّد ظلامها، ويشعّ نورها من جنبيّ ذلك النبيّ الكريم الرحيم الأمين، الذي يملأ الأسى قلبه، كان عليه السلام يحمل الخير لقومه، يرجو لهم أن يأخذوه وينتفعوا به، لكنّهم زهدوا فيما عنده من الخير العميم، والفضل العظيم، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.. ها هو يعلن أمانته وصدقه في نصحه، ويزحزح نفسه عن كلّ ريبة، فقد أدّى ما عليه، بل هو مجبول على محبّة الخير لقومه، ودعوتهم إليه.. لكنّهم.. بكلّ أسف لا يحبّونه.. لا يحبّون نصحه.. لا يحبّون أيّ ناصح مثله.

ونفس الصورة، ونفس النماذج الإنسانيّة تتكرّر، ونفس المشاهد تتوالى في قصّة شعيب عليه السلام مع قومه، غير أنّ هذه المرّة تضاف حلقة جديدة، من حلقات تلك المشاهد المتخيَّلة، إنّها الحلقة الأخيرة.. يترأأى فيها شعيب عليه السلام، يندفع بين عاطفتين: عاطفة الرحمة بقومه، والشفقة عليهم، وإرادة الخير لهم، وهذا شأن كلّ نبيّ مع قومه وعشيرته، الذين بعث فيهم.

وعاطفة أخرى هي البراءة من قومه، الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله، وماتوا على ذلك.

ويأتي الإعلان من نبيّ الله شعيب قاعدةً عامّة، تكون بعد ذلك منهجا أصيلا للأوّلين والآخرين.. إنّها قاعدة الولاء والبراء.. موالاة الله عزّ وجلّ

وحزبه، والبراءة من الشيطان وحزبه.

إنّ شعيبا عليه السلام، كانت الرحمة بقومه تملأ قلبه، يتلهّف لإخراجهم من ظلمات الكفر والفساد والضلال، إلى نور الإيمان والرشاد والهداية.

فلمّا ماتوا وأهلكوا على ضلالهم، فلن يأسى عليهم، ولن يكترث بهم ماداموا قد آثروا الغواية والضلال، على الهداية والرشاد.

«إنّه من ملّة، وهم من ملّة، فهو أمّة وهم أمّة، أمّا صلة الأنساب والأقوام، فلا اعتبار لها في هذا الدين، ولا وزن لها في ميزان الله.. فالوشيجة الباقية هي وشيجة هذا الدين، الارتباط بين الناس إنّما يكون في حبل الله المتين»[1].

ومن النماذج القرآنية التي يتجلّى فيها التصوير، قوله تعالى: «سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» [الحديد: ١]، وقوله سبحانه: «سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» [الحشر: ١]، فمع أنّ آية الحشر زيد فيها ما لم يُزد في آية الحديد، إلّا أنّ هذا الاختلاف في الزيادة، لم يؤثّر في الصورة والمشهد الذي ترسمه الآيتان معاً، وقد أحسن الإمام سيد قطب الحديث عن الآيات في ظلاله، إذ يقول: «هذا المطلع الموحي المختار، وما حشد فيه من خصائص الألوهية، الفاعلة المؤثّرة المبدعة لكلّ شيء، المحيطة بكلّ شيء، المهيمنة على كلّ شيء، العليمة بكلّ شيء، وما تعرضه من إبداع اليد القادرة، وهي تجول في محيط السموات والأرض، وتتلطّف إلى خبايا الصدور، وطوايا القلوب، وتشرف من علٍ على الوجود وما فيه ومن فيه...

---

(1) في ظلال القرآن لسيّد قطب، (3/ 1322).

هكذا ينطلق النصّ القرآنيّ الكريم في مفتتح السورة، فتتجاوب أرجاء الوجود كلّه بالتسبيح لله، ويهينم كلّ شيء في السموات والأرض، فيسمعه كلّ قلب مفتوح، غير محجوب بأحجبة الفناء، ولا حاجة لتأويل النصّ عن ظاهر مدلوله، فالله يقول، ونحن لا نعلم شيئاً عن طبيعة هذا الوجود وخصائصه أصدق ممّا يقوله لنا الله عنه.. فـ: «سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» تعني: «سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».. ولا تأويل ولا تعديل! ولنا أن نأخذ من هذا أنّ كلّ ما في السموات والأرض له روح، يتوجّه بها إلى خالقه بالتسبيح، وإنّ هذا لهو أقرب تصوّر يصدّقه ما وردت به الآثار الصحيحة، كما تصدّقه تجارب بعض القلوب في لحظات صفائها وإشراقها، واتّصالها بالحقيقة الكامنة في الأشياء، وراء أشكالها ومظاهرها.

وقد جاء في القرآن الكريم: «يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ» [سبأ: ١٠]، فإذا الجبال كالطير تؤوب مع داود، وجاء في الأثر: أخرج مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إن بمكّة حجراً كان يسلّم عليّ ليالي بُعثت، إنّي لأعرفه الآن».. وروي الترمذي بإسناده عن عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه قال: كنت مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بمكّة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله شجر ولا جبل إلا وهو يقول: «السلام عليك يا رسول الله».. وروى البخاري في صحيحه بإسناده عن أنس بن مالك قال: «خطب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى لزق جذع، فلمّا صنعوا له المنبر فخطب عليه، حنّ الجذع حنين الناقة، فنزل الرسول فمسحه فسكن».

وآيات القرآن كثيرة وصريحة في تقرير هذه الحقيقة الكونية: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ

اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ» [النور: ٤١].. «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ» [الحج: ١٨].. «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ» [الإسراء: ٤٤].. ولا داعي لتأويل هذه النصوص الصريحة، لتوافق مقرّرات سابقة لنا عن طبائع الأشياء، غير مستمدّة من هذا القرآن، فكلّ مقرّراتنا عن الوجود، وكلّ تصوّراتنا عن الكون ينبغي أن تنبع أوّلا من مقرّرات خالق هذا الكون، ومبدع هذا الوجود..»[1].

فتأمّل معي أيّها القارئ الكريم كيف يخضع الكون كلّه لله سبحانه: السموات والأراضون، والشجر والجبال، والنجوم والدوابّ، والأفلاك والأحجار، وكلّ ذرّة في الوجود تلهج بتسبيح الله، وتنزيهه وتقديسه وتعظيمه، وتخرّ ساجدة لله سبحانه.. إنّها صورة عجيبة تقشعرّ لها الأبدان، وتفرق لها القلوب السليمة، وتفزع لها الضمائر الحيّة، وتعتبر بها القرائح النقيّة.. سبحانك ربّي أنت وليّي في الدنيا والآخرة.. توفّني مسلما، وألحقني بالصالحين.

وإذا يمّمنا بهذه الآلة الإبداعية الكاشفة– أعني التصوير– موضوع القصص في القرآن، رأينا عجباً.. وكأنّ أحداث الأمم الغابرة، وأخبار الأقوام السابقة، تجري وقائعها في الحاضر الآنيّ، فإذا المشاهد تستعيد جدّتها، وإذا الألفاظ والمعاني الجامدة تستحيل وقائع محسوسة، وصور متحرّكة، مفعمة بالحياة والمشاعر والأحاسيس.

---

(1) في ظلال القرآن لسيّد قطب، (6/ 3477، 3478).

فلو سبحنا بخيالنا في جزئيّة صغيرة من قصّة موسى عليه السلام، التي أفاض القرآن الكريم في ذكرها، وكشف معالمها، وبسط وقائعها، وفق مراحلها المتعدّدة، إلى نهايتها، ولتكن على سبيل المثال مرحلة طفولته التي قال الله فيها: «طسم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» [القصص: ١ – ١٣].

إنّ هذا المقطع من السورة يعرض مشاهد أولى المحطات في حياة موسى عليه السلام مع فرعون.. إنّها محطّة البحر الخضمّ، يرمى فيه موسى عليه السلام وهو صبيّ صغير لا يقوى إلّا على البكاء.. يا ليته كان كبيراً فيَسْبَح.. يا ليت سواعده قويّة فيتحمّل.. إنّها الأماني الواحدة تلو الأخرى،

تطرأ على خيال من يستعرض هذه الصور الموجعة.. لكنّ الحقيقة التي لا مفرّ منها أنّ موسى عليه السلام، صبيّ صغير.. في ذلك البحر الكبير، تتقاذفه الأمواج من كلّ جانب، وهو مجرّد من كلّ حول وقوّة.

تُرى من وضعه في ذلك المأزق الهالك.. من رمى به في ذلك البحر الخضمّ.. هل هو عدوّه الذي يتربّص به، ويسعى للتخلّص منه، حتّى يأمن شرّه؟ كلاّ! إنّها أُمّه التي ولدته.. يا للعجب!.. إنّ من عادة المرأة أن تحتضن ولدها، وتضمّه إلى صدرها، وترضعه من ثديها، وتحيطه بالرعاية والحبّ والحنان والدفء.. فكيف خالفت هذه المرأة فطرتها، وما جبلت عليه من الرحمة بابنها، والشفقة عليه، وإرادة الخير له.. كيف خالفت ناموس خلقتها!؟.

إنّ أمّ موسى أنموذج للمرأة المؤمنة، المستسلمة لأمر الله، الواثقة بإرادة الله، الراضية بحكم الله.. ومع ذلك فهيّ أمّ.. يكاد الخوف على ابنها، والشوق إليه يقطّع أمعاءها، ويمزّق أحشاءها.. «لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»، ويزداد الأمر شدّة، ويكاد الخوف يقْطع الأنفاس حينما وقع موسى في قبضة فرعون.. ألم يقل لها ربّ العزة سبحانه: «وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ»؟.. أهذا هو الأمن؟ أهذا هو الوعد؟ أهذه هي البشارة؟ وهل كانت المسكينة تخشى عليه إلّا من فرعون؟ وهل كانت ترجف إلّا أن ينكشف أمره لفرعون؟ وهل كانت تخاف إلّا أن يقع في يد فرعون؟.. الآن وقع المحذور، وما كان يُخشى منه.

في هذه اللحظة الحرجة التي أصبح فيها «فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا».. في هذه النقطة التي بلغ فيها الخوف مبلغه ومنتهاه، تتدخّل العناية الإلهية لتخلّص موسى من وحشية فرعون القاتل.. تُرى هل خلّصته بالسلاح

والجيوش؟ أم ببذل الجاه والمال؟ كلاّ.. إنّها خلّصته بنسمة حبّ حانٍ في قلب امرأة فرعون.. ذلك الحبّ الرقيق الشفيف، تحدّت به وحشية فرعون، وقسوته وغلظته وحرصه وحذره.. تُرجم في كلمات تنبع من قلب نقيٍّ صافٍ أبيض من الثلج..«قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ».. ولقد هان فرعون الوضيع على الله تعالى أن يحمِيَ منه الطفل الضعيف بغير هذا..

هذه الوقائع والأحداث المتسارعة في قصر فرعون، تحدث دون علمٍ من أمّ موسى التي أصبحت بفراغ قلبها كالمجنونة، لا عقل ولا وعي ولا قدرة على نظر أو تصريف.. إنّها ملهوفة والهة، لن تكفّ عن الدموع.. لن تسكت عن البحث والمحاولة.. «وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ».. اتّبعي أثره.. اعرفي خبره.. فتبصر به أخته من بعيد فتعرفه، وتهتبل فرصة لهفتهم على مرضع فتقول لهم: «هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ»؟ فيتلقّون كلماتها وهم يستبشرون.. يودّون لو تكون صادقة، فينجو الطفل العزيز المحبوب، «وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» [يوسف: ٢١]..«فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».. ها هو الوعد تحقّق، والبشارة تحقّقت أيضاً، «وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

نموذج قرآني آخر يمثّل الكفر في أعلى صوره، هو قصّة إبليس، وهي في عمومها تعرض مشهداً مروّعاً من التحدّي السافر من إبليس لربِّ العزّة سبحانه.. هذا الربّ الذي يتوجّه له الوجود كلّه بالدينونة والتذلّل، والخضوع والتعظيم والتسبيح، والسجود والعبودية.. يتجرّأ إبليس فيتحدّاه ويعصيه ويتمرّد عن سلطانه.. إنّه مشهد لا تتحمّله الفطر السليمة، والقلوب الحيّة، ولا تقوى على متابعة هذا المروق، وهذا التمرّد، وهذا الخروج، وهذا

التحدّي، وهذه السفالة، وهذه النذالة، وهذا الجنون..

على أنّ هذه القصّة وإن وقع الإخبار عنها في الماضي إلّا أنّ أحداثها لا تزال مستمرّة إلى أن يحكم الله بين حزب الشرّ المتمثّل في إبليس وأتباعه، وحزب الخير، وهم العصبة المؤمنة بربّ العزّة سبحانه، فنسأل الله أن يكفِيَنا شرّ الشيطان وأتباعه. آمين.

ولعلّنا ندرك تماما مدى تحقيق التصوير في القرآن الكريم للإمتاع والإقناع، وتنشيط آلة الفكر، وإثارة مشاعر الوجدان، والتأثير في النفوس، وحملها على التسليم والإذعان.

إنّ القرآن الكريم، وما جاء فيه من أخبار وقصص، ومواعظ وأحكام، وتشريعات وترغيب وترهيب، كلّ هذه المواضيع مقاصدها معطّلة، ما لم يوظّف فيها أسلوب التصوير.. فإذا أُعمِل التصوير في آيات الذكر الحكيم، استحالت منْظراً جديداً على النفس الإنسانيّة، وكأنّه لم تعهده من قبل، فيؤتي ثماره من المقاصد السامية والغايات النبيلة كلَّ حين بإذن ربّه.

المطلب الثاني: التناسب اللفظي والمعنوي للمتشابهات اللفظية والقصصية في القرآن الكريم.

إنّ أكثر لطائف القرآن مودعةٌ في الترتيبات والروابط؛ أعني: ارتباط آي القرآن بعضها ببعض، حتّى يكون كالكلمة الواحدة، متّسعة المعاني، منتظمة المباني، وكما أنّ القرآن معجز بسبب فصاحة ألفاظه، وشرف معانيه، فهو أيضا معجز بسبب ترتيبه، ونظم آياته، ومناسبة ألفاظه ومعانيه.

ومن تأمّل القرآن الكريم عامّة، وما جاء فيه من القصص خاصّة، وكيف أنّها ترد في موضع بألفاظ وعبارات ونظم وأسلوب، ثمّ تساق في موضع آخر، بألفاظ وعبارات ونظم وأسلوب، غير الألفاظ والعبارات والنظم

والأسلوب الذي سيقت بها في الموضع السابق، وهكذا كلّما تعدّدت المواضع والسياقات، كلّما تنوّعت الألفاظ والمعاني، بما يخلب اللّبّ، ويأخذ بمجامع العقل؛ روعة وانبهاراً وسحراً، وهذا حسب الإمام البقاعي رحمه الله ممّا: «يرسّخ الإيمان في القلب، ويتمكّن من اللّبّ، وذلك أنّه يكشف أنّ للإعجاز طريقين: أحدهما نظم كلّ جملة على حيالها بحسب التركيب، والثاني نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب، والأوّل أقرب تناولاً وأسهل ذوقا، فإنّ كلّ من سمع القرآن من ذكيّ وغبيّ يهتزّ لمعانيه، وتحصل له عند سماعه روعة بنشاط، ورهبة مع انبساط، لا تحصل عند سماع غيره، وكلّما دقّق النظر في المعنى، عظم عنده موقع الإعجاز، ثمّ إذا عَبَرَ الفطِن من ذلك إلى تأمّل ربط كلّ جملة بما تلته، وما تلاها، خفي عليه وجه ذلك، ورأى أنّ الجمل متباعدة الأغراض، متنائية المقاصد، فظنّ أنّها متنافرة، فحصل له من القبض والكرب أضعاف ما كان حصل له بالسماع من الهزّ والبسط... فإذا استعان بالله، وأدام الطَّرْق لباب الفرج؛ بإنعام التأمّل وإظهار العجز، والوثوق بأنّه في الذروة من إحكام الربط، كما كان في الأوجّ من حسن المعنى واللفظ، لكونه كلامَ مَنْ جلّ عن شوائب النقص، وحاز صفات الكمال، إيمانا بالغيب، وتصديقا للربّ، قائلا ما قاله الراسخون في العلم: «رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ» [آل عمران: ٨]، فانفتح له ذلك الباب، ولاحت له من ورائه بوارق أنوار تلك الأسرار، ورقص الفكر منه طربا، وشكر لله استغرابا وعجباً، وشاط لعظمة ذلك جَنانُه، فرسخ من غير مريّة إيمانُه، ورأى أنّ المقصود بالترتيب معان جليلةُ الوصف، بديعة الرصف، عالية الأمر، عظيمة القدر،... فسبحان من أنزله، وأحكمه، وفصّله وغطاه، وجلّاه، وبيّنه غاية البيان

وأخفاه»[1].

«والمناسبة في اللغة هي القرابة،... وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتمها، ومرجعها والله أعلم إلى معنى ما رابط بينهما: عامٍّ أو خاصٍّ، عقليّ أو حسيّ أو خياليّ، وغير ذلك من أنواع العلاقات... وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء»[2].

على أنّنا بسطنا القول في مناسبة الألفاظ لمواضعها حسب السياق المعنوي واللفظي للآيات، فيما تقدّم ذكره من الآيات المتشابهة، في الباب الأول من هذه الأطروحة، وسنورد بعض الآيات الأخرى على سبيل الإيجاز، زيادة في البيان، من ذلك قوله تعالى في سورة البقرة: «فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ» [البقرة: ٢٣]، وفي غيرها بإسقاط "من" لأنها للتبعيض، ولمّا كانت سورة البقرة سنام القرآن، وأوّله بعد الفاتحة، حسن دخول "من" فيها ليعلم أنّ التحدّي واقع على جميع القرآن من أوّله إلى آخره، بخلاف غيرها من السور، فإنّه لو دخلها "من" لكان التحدّي واقعا على بعض السور دون بعض، ولم يكن ذلك بالسهل.

وكذلك قوله تعالى في البقرة: «فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ» [البقرة: ٣٨]، وفي طه: «فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ» [طه: ١٢٣]، لأنّ ما جاء في طه مناسب لما قبله في قوله: «يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ» [طه: ١٠٨].

وقوله تعالى في قصّة موسى وقومه مع فرعون في البقرة: «يُذَبِّحُونَ» بغير

---

(1) نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي، (1/ 7، 8).

(2) البرهان في علوم القرآن للزركشي، (1/ 35، 36).

واو على أنّه بدل من «يَسُومُونَكُمْ» وتفسير له. وفي الأعراف بلفظ: «يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ» مناسبا لما قبله: «سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ»، وفي إبراهيم: «وَيُذَبِّحُونَ» بالواو، لأنّه من كلام موسى عليه السلام، يعدّد المحن عليهم فحسن العطف، فجاء كلّ على ما يناسب مقامه الذي ورد فيه.

وكذلك ما جاء من تقديم لفظ "اللعب" على "اللهو" تارة، وتأخيره عنه أخرى. وإنّما قدّم "اللعب" على الأكثر، لأنّ اللعب زمان الصبا، واللهو زمان الشباب، وزمان الصبا متقدّم على زمان اللهو، وقدّم "اللهو" في الأعراف لأنّ ذلك يوم القيامة، فذكر على ترتيب ما انقضى، وبدأ بما به الإنسان انتهى من الحالين.

وأمّا العنكبوت فالمراد بذكرهما زمان الدنيا، وأنّه سريع الانقضاء، قليل البقاء «وَإِنَّ الدَّارَ الْآَخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» [العنكبوت: ٦٤]، أي الحياة التي لا أبد لها، ولا نهاية لأبدها، فبدأ بذكر اللهو، لأنّه في زمان الشباب، وهو أكثر من زمان اللعب، وهو زمان الصبا.

ومنه تقديم لفظ "الضرر" على "النفع" في الأكثر، لأنّ العابد يعبد معبوده خوفا من عقابه أوّلا، ثمّ طمعا في ثوابه كما تقرّر لدى أكثر أهل العلم، وقد كان لنا كلام حول هذا التوجيه، فليرجع إليه من شاء[1].

وحيث تقدّم النفع على الضرّ، فلتقدّم ما يتضمّن النفع، وذلك في سبعة مواضع: ثلاثة منها بلفظ الاسم، وهي في الأعراف والرعد وسبأ، وأربعة بلفظ الفعل، وهي في الأنعام ويونس والأنبياء والفرقان.

أمّا في الأعراف فلِتقدّم قوله: «مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ

---

(1) ينظر: ص: 93– 95، من هذه الدراسة.

فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» [الأعراف: ١٧٨]، فقدّم الهداية على الضلال، وبعد ذلك: «لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ» [الأعراف: ١٨٨]، فقدّم الخير على السوء، وكذا قدّم النفع على الضر «قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا» [الأعراف: ١٨٨]، وفي يونس قدّم الضرّ على الأصل، ولموافقة ما قبلها، فإنّ فيها «مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ» [يونس: ١٨]، وفيها «وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ» [يونس: ١٢]. فجاءت «مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ» [يونس: ١٠٦]، وكذلك ما جاء بلفظ الفعل فلسابقة معنى يتضمّن نفعا.

أمّا الأنعام ففيها: «لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ» [الأنعام: ٧٠]، ثمّ وصله بقوله: «قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا» [الأنعام: ٧١].

وفي يونس تقدّم: «ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ» [يونس: ١٠٣]، ثمّ قال: «وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ» [يونس: ١٠٦].

وفي الأنبيّاء في قصّة إبراهيم عليه السلام، تقدّم قول الكفار لإبراهيم: «لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ» [الأنبياء: ٦٥ – ٦٦]، وفي الفرقان تقدّم: «أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ» [الفرقان: ٤٥]، نعما جمّة في الآيات، ثمّ قال: «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ» [الفرقان: ٥٥].

فتأمّل هذه المواضع التي هي أعظم اتّساقا من العقود، كما يقول

الزركشي رحمه الله[1].

هكذا يتفنّن القرآن الحكيم في النقل من أسلوب إلى آخر، بأنسب الألفاظ وأدقّ المعاني، وأروع السياقات، وأحكم المناسبات، مع اشتماله في كلّ ذلك على فوائد قيّمة، وحكم باهرة بديعة، تزيد المؤمن إيمانا ويستبشر بذلك، والمنافق رجسا إلى رجسه ويتحسّر لذلك، قال الله: «فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ» [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

وهكذا يتجلّى لنا بوضوح، مدى أهمّيّة التناسب اللفظي والمعنوي في فهم نصوص القرآن الكريم، وبيان معانيها، واستجلاء غوامضها، وإدراك مقاصدها وغاياتها، وكشف أسرارها البلاغية والإعجازية على حدّ سواء.

على أنّه سبق وأن بيّنّا مدى أهمّيّة التناسب اللفظي والمعنوي في قصّة إبليس في مواضعها من آي الذكر الحكيم، في الفصل السابق، فأغنى ذكره هناك عن إيراده هاهنا.

---

(1) البرهان في علوم القرآن للزركشي، (1/ 123).

المبحث الرابع: البنية السرديّة للقصّة القرآنية[1]:

إنّ أسلوب السرد القصصي في القرآن الكريم وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة في تحقيق أهدافه وغاياته الأصيلة، فهو كتاب دعوة وهداية قبل كلّ شيء، «والقصّة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها»[2]، وحمل النفوس على الاعتبار بالأخبار الماضية وعاقبة المخالفين حتّى يهتدوا وينقادوا للحقّ ويستسلموا له.

وقصّة آدم وإبليس كغيرها من القصص القرآني المجيد، وردت في القرآن الكريم، وتكرّرت في مواضع شتّى، كونها تتضمّن موضوعاً خالداً، لم ينته بموت آدم عليه السلام الذي يعدّ النموذج البارز والشخصية الرئيسة التي دارت حولها القصّة، من بدايتها إلى منتهاها، وإنّما سيستمر موضوعها المتمثّل في الصراع الدائر بين ذرّيّة آدم وعدوّها اللدود إبليس، ما بقي على ظهر البسيطة إنسان.

على أنّ من أغراض هذه القصّة «تنبيه أبناء آدم إلى غواية الشيطان، وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم منذ أبيهم آدم، وإبراز هذه العداوة عن طريق القصّة أروع وأقوى، وأدعى إلى الحذر الشديد من كلّ هاجسة في النفس تدعو إلى الشرّ، وإسنادها إلى هذا العدوّ الذي لا يريد بالناس

---

(1) لقد استفدت كثيرا في هذا الفصل من كتاب: البنية السردية في القصص القرآني لمحمد طول، إلّا أنّه لم يتناول قصّة إبليس في كتابه، فاكتفيت بتوظيف عناصر القصّة القرآنية المذكورة في هذا الكتاب عموما، وأسقطتها على قصّة إبليس خاصّة، ينظر: البنية السردية في القصص القرآني لمحمد طول، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د، ر، ت، ط)، ص: 15، 34، 43، 56، 84.

(2) التصوير الفني في القرآن لسيد قطب، ص: 119.

الخير!»[1].

والمتأمّل في البنية السردية لهذه القصّة يجد أغلب أحداثها ووقائعها غير مألوفة لدى الجنس الإنسانيّ والطبيعة البشرية، بدءاً من خلق آدم من صلصال من حمإ مسنون، وهو النوع المهين من الطين، ثمّ نفخ فيه ربّ العزّة سبحانه من روحه، هذه «النفخة العلويّة التي فرّقت بينه وبين سائر الأحياء، ومنحته خصائصه الإنسانيّة، التي أفردته منذ نشأته عن كلّ الكائنات الحيّة، فسلك طريقاً غير طريقها منذ الابتداء، بينما بقيت هي في مستواها الحيوانيّ لا تتعدّاه»[2] كما خلق عدوّه إبليس من قبل من نار السموم، وكان لإبليس بعض من صفات السموم، فهو يؤثّر «في عناصر الطين بحكم أنّه من النار»[3]، كما يتّصف «بالأذى والمسارعة فيه بحكم أنّه من نار السموم، ثمّ تنكشف لنا من ثنايا القصّة صفة الغرور والاستكبار، وهي ليست بعيدة في التصوّر عن طبيعة النار»[4] إلى حادثة الإنزال لآدم من الجنّة، والطرد لإبليس منها.

ثمّ إنّ المكان الذي دارت فيه وقائع القصّة غير مألوف أيضا، فإنّ أحداثها وقعت في الملأ الأعلى، حيث تنكشف الحجب وتخرق النواميس الكونية، وقوانين الطبيعة.

ولئن كان عنصر الزمن له فاعليته في بناء السرد القصصيّ القرآنيّ، كون

---

(1) التصوير الفني في القرآن لسيد قطب، ص: 127.

(2) في ظلال القرآن لسيّد قطب، (14/ 2139).

(3) المصدر نفسه، (14/ 2139).

(4) المصدر نفسه ، (14/ 2139).

القصّة تمثّل بدء الخليقة إلّا أنّه في عداد الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه، هذا بالنظر إلى هبوط آدم وزوجته وعدوّه إلى الأرض، أمّا بالنظر إلى زمن خلق آدم عليه السلام، وما كان من غواية إبليس له، فإنّ هذه الحوادث كلّها لم تكن خاضعة لسلطان الزمن المعروف عندنا، ذلك أنّ الزمن المعمول به على ظهر هذه البسيطة متعلّق بالأرض، ومرتبط بها فحسب، ولا تأثير له خارجها. وهذا بدليل قوله تعالى: «وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ» [الحج: ٤٧]، وقوله سبحانه: «فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ» [المعارج: ٤].

أمّا عن الأشخاص[1] فهناك شخصيتان بارزتان تتمثّلان في آدم عليه السلام وإبليس، وشخصيات ثانوية تتمثّل في حوّاء زوجة آدم عليه السلام والملائكة عليهم السلام.

«إنّ شخصية آدم عليه السلام في قصص القرآن لنموذج للإنسان بكلّ مقوّماته وخصائصه، ومن أظهر تلك المقوّمات والخصائص؛ ذلك الضعف البشريّ الأكبر الذي يجمع كلّ نواحي الضعف الأخرى، الضعف أمام الرغبة في الخلود، وقد لمس إبليس موضع الضعف هذا فاستجاب له آدم، واستجابت له حواء، «قَالَ يَا آَدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى» [طه: ١٢٠]، فالإنسان الفاني حريص على الخلود أبداً، فلمّا لم ينله كما منّاه الشيطان، ظلّ وسيظلّ يحاوله بمختلف الطرق، بالنسل وبالذكْرِ وبالخيال، فإن لم ينفعه هذا كلّه، نفعه الدين الذي يضمن له البعث مرّة

---

(1) لا نقصد هنا بالأشخاص الأناسيَ من عباد الله، فنقصر الحديث عنهم، بل نقصد كلّ شخصية وقعت منها أحداث، وصدرت عنها عبارات وأفكار أدّت دورا في القصّة، ولا يظنّنّ ظانّ أنّ الله جلّ وعلا ضمن هذا.. تعالى الله عن ذلك علوّا كبيراً!

أخرى، ويضمن له نوعا من الخلود أيضاً!.

أمّا شخصيّة إبليس فهي شخصيّة الشيطان وكفى..!»[1].

وهنا نكتة لطيفة عن طاعة آدم لعدوّه وعصيانه لربه سبحانه، ذكرها الإمام الرازي في تفسيره، حيث يقول: «واعلم أنّ واقعة آدم عليه السلام عجيبة، وذلك لأنّ الله تعالى رغّبه في دوام الراحة، وانتظام المعيشة بقوله: «فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى» [طه: ١١٧ – ١١٩]، ورغبة إبليس أيضاً في دوام الراحة بقوله: «هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ» [طه: ١٢٠]، وفي انتظام المعيشة بقوله: «وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى» [طه: ١٢٠]، فكان الشيء الذي رغب الله آدم فيه هو الذي رغبه إبليس فيه، إلاّ أنّ الله تعالى وقّف ذلك على الاحتراس عن تلك الشجرة، وإبليس وقّفه على الإقدام عليها، ثمّ إنّ آدم عليه السلام مع كمال عقله وعلمه بأنّ الله تعالى مولاه وناصره ومربيه، أعلمه بأن إبليس عدوّه حيث امتنع من السجود له، وعرّض نفسه للّعنة بسبب عداوته، كيف قَبِلَ في الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول إبليس مع علمه بكمال عداوته له، وأعرض عن قول الله تعالى مع علمه بأنّه هو الناصر والمربّي، ومن تأمّل في هذا الباب طال تعجّبه، وعرف آخر الأمر أنّ هذه القصّة كالتنبيه على أنّه لا دافع لقضاء الله، ولا مانع منه، وأنّ الدليل وإن كان في غاية الظهور، ونهاية القوّة، فإنّه لا يحصل النفع به إلّا إذا قضى الله تعالى ذلك وقدّره»[2].

---

(1) التصوير الفني في القرآن لسيد قطب، ص: 171.

(2) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب للإمام الرازي، (22/ 109).

والإمام الرازي رحمه الله ينبّهنا إلى عنصر آخر من عناصر القصّة القرآنيّة، ألا وهو القضاء والقدر، فقد قدّر الله جلاّ وعلا أن تكون الأرض مسرحاً للصراع الدائر بين الإنسان والشيطان: «فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آَدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى» [الأنفال: ٣٧]، فجاءت أحداث القصّة مجسّدة لإرادة الله وقضائه ومشيئته سبحانه.

أمّا عن الشخصيّات الثانويّة، فإنّ الملائكة لم يرد ذكرهم في القصّة إلّا في حادثة أمرهم بالسجود، وتنفيذهم لأمر ربّهم، فسجدوا لآدم عليه السلام.

أمّا زوجته حوّاء فلم يصرّح باسمها في القرآن الكريم، وإنّما كنّي عنها بلفظ الزوج في قوله تعالى: «وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ» [الأعراف: ٣٥]، وبالضمير في قوله تعالى: «فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آَدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى» [طه: ١٢١]، وضمير المثنّى في الآية يعود على آدم وزوجته حوّاء عليهما السلام.

«والصلة بين الحوادث والشخصيّات في القصّة أقوى من أن يدلّل عليها، أو يلفت الذهن إليها، ذلك لأنّهما العنصران الرئيسان في كلّ قصّة، نحن لا نستطيع أن نتصوّر شخصاً من غير أحداث تلمّ به أو تقع عليه، نعم نحن لا ننكر أنّ القصّة في القرآن لقصرها قد تجعل العنصر البارز في تكوينها عنصر الحوادث، وقد تبهم عنصر الأشخاص، وتجعله عامّا غامضاً، لكن ذلك لا يدفع إلى التسليم بخلوّ القصّة من هذا العنصر مهما يبرز

العنصر الآخر، ويقف وحده في الميدان»[1].

ومن العناصر الداخلة في بناء القصّة القرآنيّة عنصرا الحوار والمناجاة، فقصّة آدم عليه السلام وإبليس افتتحت بحوار دار بين الله سبحانه وملائكته عليهم السلام، حيث عرض عليهم إرادته في جعل خليفة له في الأرض، وما ردّوا عليه من إنكارهم ذلك؛ معلّلين رفضهم بأنّ هذا الخليفة سيكون سبباً في الفساد وسفك الدماء، وإهلاك الحرث والنسل، وذلك في قوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ» [البقرة: ٣٠]، وقد بيّن لهم الله سبحانه وتعالى قصر نظرهم وقلّة علمهم حين خلق الله آدم، وعلّمه الأسماء: «وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» [البقرة: ٣١].

وباستجابة الملائكة لأمر الله، وسجودهم لآدم عليه السلام، تطوى صفحة الحوار معهم ويختفون من مشاهد السرد القصصيّ لتفتح صفحة جديدة من المشاهد المثيرة الحيّة، التي تبرز ظاهرة الإباء والعناد والجحود والاستكبار في أوجّها وعنفوانها.. إنّها صفحة الحوار الدائر بين ربّ العزّة سبحانه وإبليس حين رفض السجود لآدم، وكان عاقبته أن طُرد من رحمة الله تعالى، وأخرج من الجنّة، «وعندئذ تتبدّى خليقة الحقد وخليقة الشرّ...لقد طلب النظرة إلى يوم البعث، لا ليندم على خطيئته في حضرة الخالق العظيم، ولا ليتوب إلى الله ويرجع ويكفّر عن إثمه الجسيم، ولكن لينتقم من آدم

---

(1) الفنّ القصصي في القرآن الكريم لأحمد أحمد خلف الله، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط3، 1965، ص: 290. على أنّ هذا الكتاب فيه آراء وأفكار للكاتب تنقض الدين من أساسه، فليحذره متصفّحه!

وذرّيّته جزاء ما لعنه الله وطرده، يربط لعنة الله له بآدم، ولا يربطها بعصيانه لله في تبجّحٍ نكير!»[1].

ويبدأ إبليس في تنفيذ ما توعّد به من إغواء آدم وذرّيّته من بعده، فعمد إلى آدم يزيّن له معصية الله تعالى، وسلاحه وعدّته في ذلك كلّه تزيين الباطل والقبيح وتجميله، والإغراء بزينته المصطنعة على ارتكابه.

وفي غفلة من آدم الذي سحره إبليس بإغرائه وغوايته وإمنائه يقع في معصية ربّه، ويتخلّى عنه إبليس في هذه اللحظة، فقد نفّذ ما توعّد به وانتصر على خصمه– في جولته الأولى من الصراع الدائر المستمرّ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها– وظفر بأمنيّته.

وهنا يستيقظ آدم من غفلته ويتوجّه إلى ربّه يناجيه ويسترحمه ويستغفره ويتوب إليه: «فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» [البقرة: ٣٧].

بعد ذلك تتوالى الإعلانات واللوائح والقرارات والأحكام التي لا معقّب لها ولا رادّ لمقتضاها.

–صدر الأمر إلى الخصمين اللدودين أن يهبطا إلى أرض المعركة الطويلة بعد الجولة الأولى: «قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ» [طه: ١٢٣].

–أعلنت الخصومة في الثقلين، فلم يعد هناك عذر لآدم وبنيه من بعده أن يقول أحد منهم إنّما أخذت على غرّة، ومن حيث لا أدري، فقد درى وعلم، وأعلن هذا الأمر العلْويّ في الوجود كلّه: «بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ».

---

(1) في ظلال القرآن لسيّد قطب، (14/ 2141).

«ومع هذا الإعلان الذي دوّت به السموات والأراضون، وشهده الملائكة أجمعون، شاءت رحمة الله بعباده أن يرسل إليهم رسله بالهدى قبل أن يأخذهم بما كسبت أيديهم، فأعلن لهم يوم أعلن الخصومة الكبرى بين آدم وإبليس أنّه آتيهم بهدى منه، فمجاز كلّاً منهم بعد ذلك حسبما ضلّ أو اهتدى»[1].

فمن اهتدى واتبع رسل الله سبحانه وتعالى يعودون إلى هذه الجنّة التي ألفوها واخرجوا منها بعد هذه الغربة الطويلة، والفراق العصيب، فيقال لهم: ««ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ» [الأعراف: ٤٩]، وحيث ينادَون من الملأ الأعلى: «أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» [الأعراف: ٤٣]، فكأنّما كانت هذه عودة المهاجرين، وأوبة المغتربين عن دار النعيم، وكأنّما استحقّوا الإياب، وأُورِثوا الجنّة لأنّهم عصَوا الشيطان بعد أن كان اتّباعُه سببَ الخروج»[2].

وفي هذه "الأوبة" إلى الجنّة تناسق في العرض، وانسجام في الألفاظ وترابط في المعنى، وتسلسل في التعبير، مع ذلك "الخروج" منها في أوّل الأمر.

وأمّا من ضلّ واتّبع الشيطان فإنّه لا يزال في غربته وظلمته وتيهه يتخبّط: «وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى» [طه: ١٢٤]، فهو أعمى البصر والبصيرة : «مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا» [الإسراء: ٩٧]، هناك لا راحة ولا اطمئنان.. نسأل الله العافية.

---

(1) المصدر السابق، (16/ 2355).

(2) التصوير الفني في القرآن لسيد قطب، ص: 148.

هكذا ترد القصّة القرآنيّة في اتّساق وانسجام كاملين، وفي ترابط وثيق بين السابق واللاحق، والبدايات والنهايات أو المقدمات والنتائج، وهي تحمل في ثناياها الغايات والمقاصد والأهداف التي من أجلها تمّ عرضها وسردها؛ من التذكير والوعظ والدعوة إلى أخذ العبرة، قال تعالى: «وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ» [الأنعام: ٥٥]، وقال سبحانه: «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ» [الأنفال: ٤٢].

خاتمة

اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ.

ها أنذا أحطّ رحالي بعد هذه الرحلة الطويلة، في خضمّ الكشف عن أسرار التشابه اللفظي في آيات الذكر الحكيم التي سيقت في سرد أحداث القصة القرآنية المجيدة، ولست مدّعيا أنّني بلغت الغاية في ذلك. لكن أرجو أن أكون قد وفّقت إلى حدّ كبير في إبراز جماليّات التعبير القرآني القصصي من خلال الآيات المتشابهة، وكشف اللثام عن أسراره البلاغيّة، ومقاصده الساميّة من الإقناع والتأثير والإمتاع.

ولا يفوتني في ختام هذا البحث أن أذكر ملخّصاً لأهمّ نقاط البحث، وأتبعه بأهمّ النتائج المتوصّل إليها، ثمّ أردف ذلك ببعض التوصيّات، أضعها بين أيدي الباحثين من بعدي حتّى يكملوا النقص، ويصلحوا العيب، ويسدّوا الثغر، بحول الله وقوته.

على أنّني بيّنت مقاصد الاختلاف الوارد بين آيات الذكر الحكيم المتشابهة، وكسف أسراره البلاغية ما استطعت إلى ذلك سبيلا، وهذا من خلال مدخَل، وفصلين.

تناولت في المدخل التعريف اللغويّ والاصطلاحيّ للمتشابه اللفظ في القرآن الكريم، وبيان أهمّيّته وفوائده والحكمة منه، والإشارة إلى بعض الأنماط التي يرد عليها فيه..

أمّا الفصل الأول فقد خصّصته للقسم النظري، تناولت فيه بلاغة المتشابهات اللفظية في القصّة القرآنية وتناولت بالدراسة والتحليل الآيات

المتشابهة المخصّصة لسرد أحداث القصّة القرآنية الواحدة ووقائعها، وفق ترتيب المصحف الشريف، وأبرزت مظاهرها الإعجازية وأسرارها البلاغية، بما أمدّني الله جلّ وعلا من فيض رحماته، ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

ثمّ بعد ذلك عمدت إلى سرد مادّة الفصل الثاني، وهو عبارة عن دراسة تطبيقيّة للآيات التي تضمّنت قصّة إبليس، وما كان منه من العناد والجحود والاستكبار، وقد ضمّنتها أربعة مباحث، تناولت في الأوّل بلاغة القصّة ودورها في البيان التذكيريّ، وفي الثاني الآيات المتشابهة في سرد أحداث القصّة، وبيان علائقها البنويّة والدلاليّة، وفي الثالث أهمّيّة المتشابه في التصوير الفنّي، والتناسب اللفظي والمعنوي في القرآن الكريم، وفي الرابع البنية السرديّة للقصّة القرآنيّة، وكانت الدراسة على قصّة إبليس خصوصا.

على أنّني توصّلت خلال رحلتي في هذا البحث إلى نتائج علميّة، لم أجد بُدّاً من ذكرها هاهنا.

أ- إنّ القرآن الكريم تضمّن أدقّ الألفاظ وأكملها جمالاً، وأشرف المعاني وأكرمها نبلاً، وأعلاها شأناً، في تناسق عجيب، أعجز الخليقة أن تأتي بمثله.

ب- إنّ براعة القرآن في دقّة اللفظ وسلامة المعنى، وجودة السبك وروعة النظم، وجمال النسق، وقوة العبارة، وكمال التركيب.. إن كان لا مناص من أن تكون ميزة الكتاب الخالد، الصالح لكلّ زمان ومكان، الشامل لكلّ مناحي الحياة وشؤونها، فإنّها ليست مُرادَةً لذاتها، وما هي بالغاية التي ينشدها، إنّما غايته الأسمى، ومقصده الأسنى هي الهداية، فهو كتاب هداية

أنزله الله لإخراج الناس من ظلمات الجهل وهموم الحرمان، إلى نور الإسلام وفسحة الإيمان، وهنا تكمن قوّة إعجازه، ونبل مقاصده، ورفعة شأنه، وعظم منزلته.

ج – إنّ ما تضمّنه النظم القرآنيّ البديع والمعجز من التنوّع اللفظيّ والثراء اللغويّ والتفنّن البلاغيّ.. إن دلّ على شيء، إنّما يدلّ على قمّة البلاغة القرآنيّة، وأنّها لا تبارى ولا تمارى، وهي واردة لخدمة المقصد العظيم والغاية النبيلة من القرآن، وهي التأثير في النفوس، وهدايتها إلى الحقّ، وتحقيق العبودية لله وحده دون ما سواه.

د– إنّ هذه المقاصد ما كانت لتُدرك لولا السياق القرآني ببعديه الداخليّ والخارجيّ.. الداخلي المتمثّل في علاقة الكلم بعضه ببعض، سابقه ولاحقه ومقدّمه ومؤخّره، والخارجيّ المتمثّل في أسباب النزول، والحوادث التي من أجلها تنزّلت الآيات، ووضُحت الدلالات، وتجلّت العبر والعظات.

هـ– إنّ للسياق القرآنيّ فاعليّة في تفجير دلالة العبارة القرآنيّة المتضمّنة للآيات المتشابهة، ولولا رجوع الباحثين والدارسين إليه في فهم معاني الآيات الكريمة، لبقيت مقاصد النصّ القرآنيّ معطّلةً.

و– إنّ التصوير لهو بحقّ أفضل قاعدة في التعبير القرآنيّ؛ فهو يساهم في عمليّة الإقناع والإمتاع، وتنشيط آلة الفكر، وإثارة مشاعر الوجدان والتأثير في النفوس، وحملها على الانقياد والاستسلام.

والتصوير يحيل المنظر المتكرّر، والمشهد المألوف في النفس، إلى منظر جديد على النفس، وكأنّه لم تعهده من قبل، فيؤتي ثماره من المقاصد

والغايات كلّ حين بإذن ربه.

ز– إنّ الاختلاف الوارد في الآيات المتشابهة وسيلة من وسائل القرآن في التأثير في النفوس البشريّة، فالصورة ذاتها ترتسم في الخيال، لكن بألوان أخرى، وحركات أخرى، تُضفي على العقل مسحة من الإعجاب، تدعوه إلى مزيد من التأمّل والتذكّر والتدبّر والخشوع.

ح – إنّ للقصّة القرآنيّة وتكرّرها، وتنوّع أساليب سردها، أهمّيّة كبرى في البيان التذكيريّ والبلاغيّ على حدّ سواء، كما تدعو إلى أخذ العبرة، والاستفادة من تجارب الأمم الغابرة، والحذر من سوء العاقبة.

هكذا يأتي القرآن في أعلى مستويات البلاغة، يفسّر بعضه بعضا، ويبيّن بعضه بعضا، ويؤيّد بعضه بعضا، ويصدّق بعضه بعضا، ويشهد بعضه لبعض، على نمط واحد، في علو الأسلوب والتعبير، وهدفٍ واحد من سموّ الهداية والتعليم، لا يضادّ شيء منه شيئاً آخر، فأخباره كلّها حقّ، وأوامره ونواهيه عدل، كما قال تعالى: «وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا» [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقا في الأخبار، وعدلا في الطلب[1]، وهذا – من غير شكّ – هو سرّ عجز البشر عن الإتيان بمثله. أو ما يدانيه أسلوبا وبلاغة، وتصريفا في ضروب الكلام، وفنون القول.

وإلى هنا فإنّ هذا العمل هو جهد بشريّ يعتريه شبح النقص الذي يحفّزه دائما إلى التطلّع لإكماله وسدّ ثغراته.

وما أنجز في هذا البحث ما هو إلّا مركز من مراكز الاهتمام، قابل

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، (2/ 670).

للتوسّع والتعمّق في مستويات مختلفة.

فمن حيث التوسّعُ، فإنّ عمَلَنا في أشدّ الحاجة إلى استدراك ما تمّ إغفاله من الآيات المتشابهة؛ إكمالاً للنقص، وإلماما بحواشي الموضوع.

كما هو بحاجة إلى عمل آخر من نفس النوع، بالاعتماد على مدوّنة من الأحاديث النبويّة، عسى أن تتبيّن مسالك التطوّر اللغويّ في صلب التراكيب النحويّة والبلاغيّة، نوعيّةً وتواتراً.

ومن حيث العمقُ، فإنّ أيّ بحث متعلّق بآيات الذكر الحكيم، ينبغي دراسته من خلال النظر إلى علاقة القرآن بالنفس البشريّة، ذلك أنّ القرآن الكريم جاء مخاطِباً للإنسان على وجه الخصوص بهدف هدايته وإسعاده، وهذا الإنسان إنّما هو روح ومادّة، فمن دون الروح هو جثّة هامدة، لا تدفع ضرّا ولا تجلب نفعا، ولا تحرّك ساكنا ولا تجيب داعيا.

ثمّ إنّ أيّ باحث في القرآن الكريم، عليه أن يتقيّد بما فهمه الأئمّة الأعلام، وما قرّروه من خلال فهمهم للآيات القرآنيّة، وفهم القرآن وفق كلامهم وتحليلهم، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، ينبغي النظر إلى آيات القرآن بنظرة في غاية البساطة، وفهمها الفهمَ الفطريَّ الذي يتبادر إلى الذهن في أوّل وهلة، فهذا الذي يعمل عمله في النفس من التأثير والإقناع والإمتاع، أمّا ما يتكلّفه المتكلّفون، ويتشدّقه المتشدّقون، بتحميل نصوص القرآن ما لا تحتمله من المعاني، فإنّه ليس من أصالة البحث في شيء، إنّما هو نفخ في رماد، ونقش على ماء، دون فائدة ترجى، ولا غاية تنشد، وهو من التقوّل على الله بلا علم. نسأل

الله اللطف والسلامة.

وبعد،، فهذه عصارة فكري، أضعها بين يديّ القارئ الكريم، وليس لي في تحريرها وجمعها من الافتخار أكثر من حسن الاختيار.. واختيار المرء قطعة من عقله.

وأسأل الله سبحانه أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يجعله ذخراً لي في الدارين، وأن يغفر لي خطيئاتي يوم الدين.

وكما صحِبتُ آيات الله تلاوةً وتدبراً وتحليلاً، طوال فترات بحوثي الأكاديميّة، أسأل الله العليّ القدير أن يوفّقني لصحبتها وأنا أرتقي في درجات النعيم، فيقال لي: اقرأ وارتق ورتّل كما كنت ترتّل في الدنيا، فإنّ منزلتك عند آخر آية تقرأها.. آمين. وصلِّ اللهمّ وسلِّم على نبيّنا محمد، والحمد لله من قبل ومن بعد.

الفهارس

1- فهرس المصادر والمراجع:

أوّلا: القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.

1. **آكام المرجان في عجائب وغرائب الجانّ لأبي عبد الله الشبلي، تح: قاسم السماع الرفاعي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، (د، ر، ط)، 1423/ 2002.**
2. **الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، (د، ر، ط)، 1418/ 1998.**
3. **الإحكام في أصول الأحكام للإمام ابن حزم الأندلسي، دار الحديث، القاهرة، مصر، ط1، 1404/ 1984.**
4. **أدب الكاتب لابن قتيبة، تح: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1405/1985.**
5. **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط4، 1414/ 1994.**
6. **أساس البلاغة للزمخشري، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1419/ 1998.**
7. **الأسماء والصفات لأبي بكر البيهقي، تح: عبد الله الحاشدي، مكتبة السوادي، جدة، المملكة العربية السعودية، ط1، (د، ت، ط).**
8. **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين**

الشنقيطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1417/ 1996.

9. إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، لصالح بن فوزان الفوزان، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط3، 1423/ 2002.

10. إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن قيم الجوزية، تح: مجدي فتحي السيد، دار الحديث، القاهرة، مصر، ط5، 1417/ 1996.

11. أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات، لمرعي بن يوسف الكرمي المقدسي، تح: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1406/ 1986.

12. الانتصار للقرآن لأبي بكر الباقلاني، تح: محمد عصام القضاة، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1422/ 2001.

13. إيثار الحق على الخلق لابن الوزير محمد بن إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1407/ 1987.

14. الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني، تعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط3، 1414/ 1993.

15. بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية، تح: هشام عبد العزيز عطا وآخرين، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط1، 1416/ 1996.

16. البداية والنهاية لابن كثير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،

ط1، 1415/ 1994.

17. البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود بن حمزة الكرماني، تح: عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1406/ 1986.

18. البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، لبنان، (د، ر، ط)، 1408/ 1988.

19. بلاغة الاستفهام التقريري في القرآن الكريم – دراسة أسلوبية – لمحمد مختار الشيباني، كنوز الحكمة، الجزائر، (د، ر، ط)، 1432/ 2011.

20. البنية السردية في القصص القرآني لمحمد طول، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د، ر، ت، ط).

21. بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان الخطّابي، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، مصر، (د، ر، ت، ط).

22. البيان في مصائد الشيطان لابن القيم، إعداد: صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1412/ 2000.

23. تاريخ الرسل والأمم والملوك (تاريخ الطبري) لمحمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د، ر، ط)، 1417/ 1997.

24. التصوير الفني في القرآن لسيد قطب، دار المعارف، القاهرة،

مصر، ط11، 1414/ 1994.

25. تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، تح: عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1413/ 1993.

26. تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور التونسي، دار سحنون، تونس، (د، ر، ت، ط).

27. تفسير الشعراوي، قطاع الثقافة، (د، م، ر، ت، ط).

28. تفسير القرآن العظيم لابن كثير، تقديم: عبد القادر الأرناؤوط، دار الفيحاء، دمشق، سورية، ط1، 1414/ 1994.

29. التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1411/ 1990.

30. تفسير الماوردي، (النكت والعيون)، تعليق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د، ر، ت، ط).

31. تلبيس إبليس لعبد الرحمن بن الجوزي، تح: محمد بن الحسن بن إسماعيل ومسعد عبد الحميد السعدني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1418/ 1998.

32. التوقيف على مهمّات التعاريف، لمحمد عبد الرؤوف المناوي، تح: محمد رضوان الداية، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1410/ 1990.

33. الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط5، 1417/ 1996.

34. جامع البيان في تأويل القرآن(تفسير الطبري) لمحمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1418/ 1998.

35. الجامع الصحيح (صحيح مسلم) لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار الجيل، بيروت، لبنان، (د، ر، ت، ط).

36. خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية لعبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ط1، 1413/ 1992.

37. الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1411/ 1990.

38. درّة التنزيل وغرّة التأويل للخطيب الإسكافي، تح: محمد مصطفى آيدين، دار الفتح للدراسات والنشر، عمان، الأردن، ط1، 1431/ 2010.

39. دلائل الإعجاز في علم المعاني لعبد القاهر الجرجاني، تقديم: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، (د، ر، ط)،1422/ 2002.

40. دليل المتشابهات اللفظية في القرآن الكريم لمحمد بن عبد الله الصغيّر، دار طيبة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1418/ 1998.

41. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لمحمود الألوسي، دار الفكر، بيروت، لبنان، (د، ر، ط)،

1414/ 1994.

42. زاد المسير في علم التفسير للإمام أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1414/ 1994.

43. شرح شافية ابن الحاجب لرضي الدين الاستراباذي النحوي، تح:محمد محيي الدين عبد الحميد وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د، ر، ط)، 1402/ 1982.

44. شرح الشفا للملا على القارئ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د،ر، ت، ط). الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، تح: عامر الجزار، دار الحديث، القاهرة، مصر، (د، ر، ط)، 1425/ 2004.

45. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن قيّم الجوزية، تح: عصام فارس الحرستاني ومحمد إبراهيم الزغلي، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1417/ 1997.

46. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل بن حماد الجوهري، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط4، 1407/ 1987.

47. صحيح مسلم بشرح النووي، تح: عصام الطبابطي وآخرين، دار الحديث، القاهرة، مصر، ط1، 1415/ 1994.

48. طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن قيم الجوزية، تح: عصام فارس الحرستاني ومحمد يونس شعيب، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1418/ 1998.

49. عالم الجنّ والشياطين لعمر سليمان الأشقر، دار النفائس، عمان، الأردن، ط15، 1423/ 2002.
50. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لأبي يحيى الأنصاري، محمد علي الصابوني، مكتبة رحاب، الجزائر، ط2، 1408/ 1988.
51. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير لمحمد بن علي الشوكاني، تعليق: سعيد محمد اللحام، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1412/ 1992.
52. فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبويّة حتّى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق لنعيم الحمصي، تقديم: محمد بهجة البيطار، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1400/ 1980.
53. الفنّ القصصي في القرآن الكريم لأحمد أحمد خلف الله، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط3، 1965.
54. فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن لعبد الرحمن بن الجوزي، تح: صلاح فتحي هلل، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط1، 1422/ 2001.
55. في ظلال القرآن لسيّد قطب، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط25، 1417/ 1996.
56. القاموس المحيط للفيروز آبادي، مؤسسه الرسالة، بيروت، لبنان، ط6، 1419/ 1998.
57. اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لشيخ الإسلام ابن تيمية، تح: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة

المحمدية، القاهرة، مصر، ط2، 1369.

58. الكامل في التاريخ لابن الأثير، تح: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1418/ 1998.

59. الكتاب لعمرو بن عثمان بن قنبر الملقّب بسيبويه، تعليق: إميل يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1999/1420.

60. الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لمحمود بن عمر الزمخشري، ومعه (الانتصاف لابن المنير)، رتبه: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415/ 1995.

61. كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة، تح: عبد الجواد خلف، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ط1، 1410/ 1990.

62. الكليات لأبي البقاء، إعداد: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1419/ 1998.

63. لسان العرب لابن منظور، دار الجيل، بيروت، لبنان، (د، ر، ط) 1408/ 1988.

64. المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية لصالح الشثري، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1422 هـ.

65. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير الجزري، تح: كامل محمد محمد عويضة، دار الكتب العلمية،

بيروت، لبنان، ط1، 1419/ 1998.

66. مجالس التذكير من حديث البشير النذير لعبد الحميد بن باديس، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ط1، 1403/ 1983.

67. مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، المكتب التعليمي السعودي بالرباط، المغرب الأقصى، (د. ر. ت. ط).

68. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية)، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1423/ 2002.

69. مختار الصحاح للإمام الرازي، دار الجيل، بيروت، لبنان،(د، ر، ت، ط).

70. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن قيم الجوزية، تح: أحمد فخري الرفاعي وعصام فارس الحرستاني، دار الجيل، بيروت، لبنان، (د، ر، ت، ط).

71. المدهش لعبد الرحمن بن الجوزي، تح: مروان قباني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1405/ 1985.

72. المصباح المنير للفيومي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط2، 1418/ 1998.

73. معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1408/ 1988.

74. معجم مقاييس اللغة لابن فارس، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1411/ 1991.
75. مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكّاكي، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1420/ 2000.
76. المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، تح: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، سورية، ط3، 1423/ 2002.
77. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، تح: سعد الفلّاح، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1428/ 2007.
78. موطأ الإمام مالك بن أنس برواية يحيى بن يحيى الليثي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د، ر، ت، ط).
79. نتائج الفكر في النحو لأبي القاسم السهيلي، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1412/ 1992.
80. نظرية التصوير الفني عند سيد قطب لصلاح عبد الفتاح الخالدي، دار الفرقان، عمان، الأردن، ط1، 1403/ 1983.
81. نظم الدّرر في تناسب الآي والسور لبرهان الدين البقاعي، تخ: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415/ 1995.

82. نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للإمام الرازي، تح: أحمد حجازي السقا، المكتب الثقافي، القاهرة، مصر، ط1، 1409/ 1989.

2- فهرس المحتويات:

الموضوع	الصفحة
البسملة	2
مقدمة	3
المدخل	12
قراءة في مصطلح المتشابه اللفظ وأبعاده اللغوية	12
تعريف المتشابه اللفظ لغة	13
تعريف المتشابه اللفظ اصطلاحا	15
حكمة هذا العلم وأهميته	16
أنماط المتشابه اللفظ في القرآن الكريم	20
الفصل الأول	22
بلاغة المتشابهات اللفظية في القصة القرآنية	23
المبحث الأول: سورة البقرة	26
المبحث الثاني: سورة آل عمران	56
المبحث الثالث:سورتي المائدة والأنعام	63
سورة المائدة	63
سورة الأنعام	65
المبحث الرابع: سورة الأعراف	70
المبحث الخامس: سور يونس وهود ويوسف	96
سورة يونس	96
سورة هود	97
سورة يوسف	106

المبحث السادس: بقية السور القرآنية.	112
سورة الكهف	112
سورة مريم	116
سورة طه	118
سورة الأنبياء	119
سورة المؤمنون	123
سورة الشعراء	126
سورة القصص	127
سورة العنكبوت	129
سورة لقمان	130
سورة نوح	131
الفصل الثاني: قصة إبليس أنموذجا	134
المبحث الأول: بلاغة القصة ودورها في البيان التذكيري	135
المبحث الثاني: الملمح التطبيقي للمتشابه اللفظي في القرآن الكريم وعلائقه البنوية والدلالية	145
المبحث الثالث: أهمية التصوير الفني والتناسب اللفظي والمعنوي في القرآن الكريم	167
المطلب الأول: التصوير	167
المطلب الثاني: التناسب اللفظي والمعنوي	178
المبحث الرابع: البنية السردية للقصة القرآنية	184
خاتمة	193
الفهرس	200

فهرس المصادر والمراجع	201
فهرس المحتويات	212